الراهبة والعاصي

رواية

تأليف

محمد عياد

obeikan.com

طبعة ٢٠١٧

عياد، محمد.

الراهبة والعاصي: / محمد عياد – .- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٧ .

٢١٦ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٥٢٤ ٩

١- القصص العربية.

أ - العنوان

٨١٣

obeikan.com

الراهبة والعاصي

رواية

تأليف

محمد عياد

obeikan.com

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة

المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٧/٢٠٥٢

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥٢٤-٩

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : الراهبة والعاصي

المؤلف : محمد عياد

الغلاف : إسلام البلاط

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikan.com

إهداء إليكِ أنتِ

أنتِ من أهدتني أجمل هدية،،،،

أهدتني الحياة

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

الكتابة هي المكان الذي نرى فيه أحلامنا قبل أن نعيشها في الواقع، نجد الكثير من الخبرات المُغَلَّفة بطابع أدبي تظهر جلية في السطور أمامنا فتُعلمنا وتُعَرِّفنا على أنفسنا، فعندما تشابكت الأحداث بين الواقع وخيالي،تبعثرت الأفكار وانطلقت يداي تكتب كل حين خليط من بين هذا الخيال وذلك الواقع مع إضفاء لمسة من التنبؤ، إلى أن جاء اليوم الذي قررت فيه تجميع ذلك كله، لملمت شتات نفسي عن طريق القلم، تذكرت أن الكتابة كَفَنٌ هوايتي منذ نعومة أظافري ولم أكن أُدرك ذلك فنسيتها في خِضَمِّ الحياة، أُعيد بها بناء القادم بدراسة الماضي،وأُصْقِلُ عقلي بإخراج الشوائب منه ووضعها على الورق، أعادتني هي للكتابة فعاد لحياتي كل شيء جميل، ترميني بالنظرات فأُبادلها بالكلمات، لم تكن تعلم أن تلك طريقتي في الكلام والتعبير، تأتي الليالي التي أكتب فيها بشغف، وتجيء الأيام التي لا أقدر على كتابة كلمة فيها، لكن مع كل فصل أُنهيه تتجدد الرغبة في الوصول للنهاية التي أحب في الخيال وفي الواقع.

فكما تَرْسِمُ أحلام نومي كثيرًا من أحداث يومي.

أرسمُ أنا مستقبلي بما أكتبه.

openkan.com

«ولم تكن تعلم أنه يُراقب ويحلل من بعيد،

لم تدرك أنه لم يناقشها في شيء لأنه أراد ترك أكبر مساحة لها كي يعرف ما تخفيه البواطن.

كان ما بداخلها يطابق الظاهر بنسبة كبيرة لكن ينقصها فقط قليلاً من التوجيه، قال لها لن أخذلك ولكن لا تخذليني.

لم يكن يقصد أن تتركه، فليس هذا مفهوم الخُذلان عنده، فأسهل شيء أن يُغادر الآخرين أو أن يقبل مغادرتهم، لكنه كان يقصد ألا تخذله بأفكارها، بكلامها، بأفعالها

ألا تنزل عنده من المكانة التي وضعها بها»

●●●

openkan.com

الفصل الأول

٢٠١٤-٥-٨

تاريخ لن ينساه ثلاثتهم، يَذكر أنه استمع إليهم أولا وتحدث آخرًا، ومن حين لحين ينظر لصديقهم الرابع الذي لم يشاركهم الحديث ولكنه اكتفى بممارسة هوايته المفضلة بمضايقة خلق اللّٰه على جميع مواقع التواصل الاجتماعي، وهو منزويًا في ركن من أركان الشُرْفَة، واضعًا سماعات في أُذنيه تفصله عنهم، وهم مجتمعين حول طاولة في منتصفهم ومن يتحدث منهم ويندمج في الحديث، تجده يميل ناحية الطاولة استنادًا على كوعيه وموجهًا كلامه للاثنين الآخرين حينًا، وحينًا آخر ينظر للسماء، طالبًا الرفق.

استمع إليهم مقتنعًا أن قصته الأقوى مع عدم نيته الإقدام على أية خطوة،استمع وكان ما يدور في ذهنه أن اجتماعهم سينتهي كالعادة بالهزار والضحك مع عدم فعل أي شيء ويبقى الوضع كما هو عليه حتى إشعار آخر.

تفرقوا ليلاً وكلٌّ منهم يسير بقصة تدور في رأسه، مرت عدة أيام قبل أن يُقْدِمَ على شيء لم يُصدقه هو نفسه، فكان صعب على شخصيته أن يفعل هذا إلا إذا كان الحدث عظيمًا، أرسل

لها رسالة يعبر فيها عن حبه ومشاعره ولكن بطريقة تحفظ ماء الوجه،عَبَّر لها عن اشتياقه ولكن بحروف تصون له كبرياءه الذي طالما حافظ عليه.

أرسل وانتظر كثيرًا كالظمآن الذي يرى ما يرويه من الماء لكنه ينتظر أن يفيض به عليه مالكه.

بدأت هذه المرحلة قبل هذا التاريخ بكثير، لا يذكر متى بالتحديد، لكنه بالتأكيد في نفس السنة عندما وجد نفسه مرشحًا لاجتماع مع مسئولة شئون الطلاب في الجامعة مشاركةً مع طالبة أخرى لم يكن يعرف عنها غير اسمها الذي يظهر على جروب الدفعة «زينة»

وبعد محاولته المستميتة لعدم المشاركة وترشيح شخص آخر، لم يجد مفرًّا من الذهاب ورأى أخيرًا من تكون صاحبة المبادرة، كانت من ذوات العباءات السوداء اللاتي لا ترى منهم سوى عينين اللتين تكونان كافيتين أحيانًا.

انبهر بذكائها وسرعة بديهتها، أُعجب بقدرتها على تهدئة الأمور في الاجتماع مع كل مرة كانا سيصلان لطريق مسدود؛ بسبب حدته التي اعتاد عليها في النقاش، كان يترك لها مجالاً أكبر للحديث حتى يختلس النظر إلى عينيها، كان يتصور كل حركاتها من عينيها كأنما يراها بدون هذه العباءة.

خرج من هذا الاجتماع لا يذكر شيئًا غير ابتسامة عينيها وكلام المسئولة عن سِرِّية ما دار في الاجتماع.

أُسِرَ بابتسامتها مع أنه لم يرَ ثغرها، شعر بضحكة الدنيا في عينيها، رأى ضوء الشمس أخيرًا بعد سنين من السير في الظلام...

لم يكن مستقرًّا يومها، كان يبحث عن أي مبرر ليحادثها حتى وجد ضالته عندما سأله أصدقاؤه عن نتائج الاجتماع، وأصروا على معرفة أي معلومة ولكي يُسكتهم سألها برسالة لكي يتذكر منها بعض المعلومات فهو حقًّا لم يكن يذكر مما دار في الاجتماع إلا هي.

أجابته وتبادلا المزاح الخفيف والشكر لبعضهما على الأداء المتميز وانتهوا هذه الليلة، ولم يكونا يدريان أن القدر يحمل لهما الكثير من الكلام لاحقًا.

كانت الفرحة تتسلل بهدوء إلى خلايا جسده، لتُحييها كما يتسلل الماء إلى الأرض القاحلة، نبض قلبه أخيرًا بعد سنين من الصمت المبهم، انجذب بدون حتى أن يشعر بالانجذاب؛ فهو سقط بدون أن يعرف أنه كان على حافة الهاوية، فربما لو كان يدري بما سيحدث لكان بنى حاجزًا كعادته.

مضت الأيام هادئة، يحادثها فتجيبه وترسل له في طلب شيء ما فيلبي، يدور العلم بينهما جيئةً وذهابًا، حتى زادت أعراض الحب على العليل، فمتى وكيف ولماذا؟

أسئلة حائرة لا يمكن الإجابة عليها، إنه الحب بدون أسباب، أصبحت تأتي أحلامه فدخل الحب حيز التنفيذ بدون مقاومة، كان يذكرها قبل النوم حتى يراها في الحلم، قام من النوم يُنشد أبياتًا فكأنما أصبح شاعرًا بين ليلة وضحاها، أبياتٌ بسيطة تحمل بين طياتها خليطًا من المشاعر الملتهبة والخوف من القرار، وترك المصير للقدر يتحكم فيه.

« وبنام على أمل إني أحلم بيه

أصل صورته بتوحشني

أي نعم مش عارف مشاعري إليه

بس لو من نصيبي هيعرفني»

ظلَّ يتقلب بين الشك واليقين لأيام حتى انتهت آخر محادثة على نحو لا يرضيه، بشكل يَنُمُّ عن تسرعه وسوء تقديره للردود الذي أول ما يتكون عنده قبل استيضاحه للأمور.

ذهب لصفحته على الفيس وشرع بالكتابة:-

«هنـاك بعـض المواقـف التـي تقابلنـا في الحيـاة، نقـف أمامهـا متعجبـين ومتفاجئـين، نعجـز عـن اتخـاذ قـرار، مـن ضمنهـا الإعجـاب، أعتقـد أن تلـك المواقـف يجـب أن نتـرك الكلمـة العليـا فيهـا للقـدر؛ لأننـا لـو تسـرعنا فغالبًـا لـن تعجبنـا النتائـج»

ظلـت تهيـج بـه الظنـون لأيـام قـرر حينهـا إغـلاق حسـابه علـى فيـس بـوك كأنـه كان يـدرك أنـه مقبـل علـى أمـر عظيـم، وفي اليـوم الـذي أصابـه الضعـف وتراجـع عـن هـذا الإغـلاق - وكان هـذا اليـوم يسـبق امتحـان في مـادة هامـة في الجامعـة - تـرك كل هـذا وأرسـل لهـا مـا يَقلـب الأمـور كلهـا رأسًـا علـى عقـب.وظلَّ قبـل أن يرسـل يعيـد قـراءة الرسـالة ويعدلهـا ويحفـظ فيهـا كبريـاءه علـى قـدر المسـتطاع ثـم في غفلـة مـن عقلـه ضغـط زر إرسـال...لتعلق عينـه علـى الرسـالة لثـوانٍ ثـم يـدرك بعدهـا حجـم مـا أقـدم عليـه.

أغلـق الجهـاز وحـاول أن يُتابـع مذاكرتـه لكـن هيهـات، فمـن حـين لآخـر ينظـر لشاشـة هاتفـه علَّـه يـرى كلمـة تـدل علـى الحكـم بالبـراءة بعـد أيـام مـن المداولـة؛ وفجـأة عـرف أن الرسـالة تمـت قراءتهـا ولكـن لا رد، وهـذا مـا توقعـه، فالـرد لا يمكـن أن يكـون بسـهولة.

ومع كل ساعة تمر بلا رد، يعيد قراءة ما أرسله...

«السلام عليكم ،أخبارك إيه؟

أنا عارف إنه مش وقته وإن علينا امتحان بكرة بس حبيت أعرف رأيك في حاجة، أنا بتعامل معاكِ على جروب الدفعة من زمان بالاسم بس ومكنتش أعرف مين أنتِ في الحقيقة لحد ما روحنا الاجتماع واتكلمنا، ساعتها عجبني تفكيرك وأُعجبت بشخصيتك وفكرت إني أتقدملك...

وعايزك تعرفي أيًّا كان ردك هتفضلي زميلة عزيزة وأنا في مساعدتك في أي وقت»

كان يعيد قراءة الرسالة مرة بعد مرة، يظن أنه متوازنًا ولكنه أرسل في لحظة غلبة هوى وغياب عقل.

ظل هكذا حتى نام ليَعْبُرَ بالنوم تلك الفترة العصيبة واستيقظ في التاسعة ليستقبل الرد في العاشرة...وجاء الرد الذي يحمل الكثير من الاحترام وخيبة الأمل في نفس الوقت، فأحيانًا قد يكون المضي حائرًا أفضل من الرسو في مرسى لا نتمناه،إذن استفاق الهائم على واقع عادي في طبيعته ولكنه مؤلمًا لعاشق، كفارس أُسر في معركة خاطفة ولم يُفق إلا في زنزانة مظلمة بعد براح...

أعاد قراءة ردها عدة مرات حتى اهتدى إلى مبادلتها بكلمات مختصرة :» تمام، كلامك صح، وآسف شغلتك ليلة الامتحان،

وبردوا زي ما قولتلك أنتِ أخت وزميلة ولو احتاجتِ أي حاجة في أي وقت أوعي تترددي...سلام...»

بادلته بابتسامة على طريقة فيسبوك وسلام.

في صباح اليوم التالي ذهب للامتحان مرتديًا نظارة سوداء داكنة،يداري بها ما بعينيه البنيتين، يتحاشى رؤيتها أو بمعنى أصح يتحاشى أن تراه، كان يخشى لقاء الأعين بعد فعلته، لا يذكر أنه رآها هذا اليوم ولكن لا يدري هل رأته أم لا، بل لا يذكر حتى أنه رآها مرة أخرى قبل انتهاء الامتحانات وبداية الأجازة، ربما كان الفضل يعود لتعدد قاعات الامتحان وتقسيم الأسماء، وحتى تعدد قوائم امتحان الشفوي، والحمد لله أنه لم يراها.

●●●

شغلته الامتحانات حتى نهايتها عنها، فحتى الرد الغير متوقع الذي لا يقع في مرمى هوانا يؤدي إلى الهدوء والاستقرار، لا يذكر رد فعل له غير ترديد بعض أغاني منير عن الانكسار ووضع بعض كلمات الأغاني على الفيس في بوستات وصور على صفحته الشخصية، وللغرابة لا يذكر ماذا كان يدور في عقله حينها ولكن معظم هذه البوستات كانت متاحة للرؤية من قبل العامة أي من قِبلها.

يذكر أنه قرأ ردها مرة أو مرتين بعد الامتحانات

« وعليكم السلام،طبعًا هو ده مش وقته زي ما أنتَ قولت، بس إحنا لسه صغيرين على الكلام ده، وأنا مقدرش أفاتح أهلي في حاجة زي كده دلوقتي، وإحنا زمايل طبعًا ...»

هذا جُلّ ما يذكره.

تذكر الكلام الذي كتبه إلى نفسه قبل الاعتراف، عاتب نفسه على عدم التزامها بكلامها وذَكَّرها أنه دائمًا ما يندم عندما يخالف قراراته وهذا ما حدث.

بعدها تناسى الأمر وتابع أجازته وظل لفترة تطارده فكرة أن يكون ضايقها بفعلته أو تكون فقدت ثقتها في الكلام معه، ولكن انتهت هذه الفكرة من رأسه عندما حدث بالصدفة أن رأى حسابها على الفيس في منتصف الأجازة، وللعجب أنه أُعجب بها وحادثها مرات ومرات وأرسل يطلب القُرب منها ولكنه لم يُفكر لمرة أن ينظر لبروفايلها، وجد سطرين أراحا تفكيره حتى نهاية الأجازة.

“It’s nice to know that you have a secret admirer, which someone you respect “

كانت هذه الكلمات كفيلة بطمأنته أن الموضوع أبسط مما كان يدور في خلده وأن ينحسر الحيز الذي تشغله من تفكيره وأن يهدأ ..وهكذا لم يعرف أي شيء عنها حتى بداية الدراسة مرة أخرى، اعتقد أن هذه هي نهاية القصة، ولم يدرِ أنه فقط بدأ للتو.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثاني

٢٠٠٦-١-١

سافر للخارج، بالتحديد إحدى دول الخليج مع والديه بعد أن أتمَّ المرحلة الابتدائية التي لا يذكر منها الكثير...

يذكر منها أنه لطالما كان عنيدًا منذ نعومة أظافره، لديه أفكاره الخاصة وأفعاله التي يُصر على تنفيذها رغم صغر سِنِّه، فبين رفضه ارتداء أزياء بعينها ورفضه ارتداء الجلباب الذي أتت به إحدى أقاربهم هدية له بعد رجوعها من الحج، إلى رفضه أن يصبح زملكاويًّا وهو لا يعرف عن الفريقين حينها إلا الأسماء فهو حينها أهلاويًّا بالفطرة، وعندما أراد أحد أقاربه إغواءه بالمال ليُصبح من الفريق الآخر، رفض رُغم أنه ضاعف المبلغ ومع نصائح من حوله من أفراد العائلة بقبول العرض ثم الرجوع عن التغيير بعدها...رفض.

لا ينسى رفضه شراءهم الملابس التي اختارها له عَمُّه ليحضر بها فرحه، ومع إصرارهم وقبوله ارتدائها عنوة، لم يرَ من الفرح إلا أوله وآخره وبين هذه الساعة وتلك خرج مع أحد أقاربه ليجلس على شاطئ النيل يتسامران ويأكلان الترمس حتى نهاية الفرح، يثني قميصه حتى كوعيه، واضعًا الجيليه على كتفه،

يجلس على السور يدلدل قدميه فوق الماء وظهره للكون، فمنذ قديم الأزل لا تستهويه قاعات الأفراح وصخبها.

يذكر أنه كان قياديًّا في مدرسته عندما كَوَّن مجموعة لفرض الأمن بإذن الناظر تحت اسم الشرطة المدرسية، يذكر أنه تشاجر مع من يكبره سنة دراسية من أجل زميلة له؛ فهو لا يضع اعتبارًا لحجم أو قوة خصمه مهما كان، فقط حقه له الأولوية القصوى لديه.

يتذكر «رُقَيَّة» تلك الفتاة ذات الخمار في فصله واللذان اعتادا على الحديث معًا بصداقة طفولية بريئة، ولا ينسى الموقف الأكثر إحراجًا في طفولته، عندما كان يجلس على طاولة الغداء مع أسرته لتُباغته أمه بسؤالها « هو السي دي الذي بجانب التلفاز هو اللي أعطته لك زميلتك «ليبتسم الجميع ابتسامات ماكرة، فيشعر بالخجل ويردد: «لا لا ده عبد الله»

لا ينسى عندما أصيب بحمى شديدة وهو في المدرسة ووقوف ثلاثة من الأصدقاء، الذين ربطتهم أواصر الطفولة بقوة بجانبه في غرفة طبيب المدرسة، حتى أتى والده ليأخذه للمنزل فيظل طريح الفراش ليومين، ويأتي بعدها بعضٌ من زملاء الفصل ولكن من الجانب الآخر من المدينة، الجانب الأكثر فقرًا ويُحضرون معهم كيسًا فيه قليلٌ من اليوسفي، يُقابلهم بابتهاج وسعادة على

ما فعلوه رغم قلة ما بأيديهم وعلى الكلمات الجميلة التي كتبوها في كروت الزيارة.

ويختم تلك الأيام، بأيام المرح المطلق التي كانت تسبق الامتحانات وتكون خلالها المدرسة غير منتظمة، فيتسلل هو وعدد كبير من أصدقائه ليذهبوا للعب الكرة في أرض خواء لا تبتعد كثيرًا، ويعودوا في موعد الانصراف؛ ليودع زملاءه ويركب الحنطور، تلك الوسيلة التي انقرضت من بلدته لاحقًا، كان يسعد أحيانًا بجلوسه بجانب السائق وشد اللجام، كان يطرب لصهيل الحصان ويتأذى من الضرب الزائد عن الحد عندما يكون قائد العربة هو ابن صاحبها، والذي دائمًا ما كان ناقمًا على أباه ومعيشته وتلك المهنة.

أنهى هذه المرحلة بذهابه والثلاثة المقربين منه لالتقاط صورة لهم قبل سفره في يوم ممطر، وكانت آثار المياه واتساخ الشوارع باديين على النصف السفلي منهم ولكن الصورة خرجت جيدة بالنصف العلوي، يتوسطهم أقصرهم طولاً «عبد الله» وعلى يساره أحمد وعلى يمينهم هاشم، الذي كان أطولهم، تبادلوا الصور الصغيرة معًا وفي ظهرها كلمة وداع.

سافر تاركًا خلفه كثيرًا من الأصدقاء والصديقات، تاركًا ذكريات جميلة، تاركًا عائلة وأقارب، ذاهبًا لأكثر من بداية...

عاش في الدولة الجديدة لعامين، كَوَّن صداقات فهو بارع في ذلك، ظهر تفوقه، شَجَّعه أحد الأساتذة على الإقبال على القراءة ومتابعة كافة العلوم فمثل هؤلاء قليلون، كان معروفًا بين أقرانه، أثار ذلك ضغينة بعضهم، أدخله تفوقه في مشاكل كثيرة لكنه طالما كان له القدرة على تولِّي أموره.

تتلاشى ذكرياته في دولته الأم شيئًا فشيئًا لتحل محلها ذكريات جديدة، حتمًا سينسى منها الكثير لاحقًا، كانت أيامه في مجملها سعيدة يقضي يومه بين المدرسة ولعب الكرة والمذاكرة، كان يقرأ كثيرًا ويقضي نهاية الأسبوع والأجازات في الخروج مع أهله للذهاب لشاطئ الخليج أو التجمع مع أولاد جيرانه.

كان يتسلل مع زميل يكبره بسنة من المدرسة ليذهبا إلى مول قريب من المدرسة كعادته في مصر في الأيام الأخيرة قبل الامتحانات، وكثيرًا ما يخرج مع من هم أكبر منه سنًّا، فكان يخرج مع الأخ الأكبر لجاره في مصر.

كانا يذهبان للمول فيُحدثه صاحبه بالنظر إلى هاتيك المرأة أو تلك ويعدد مفاتنها، ولكنه لم يكن يستهويه هذا الحديث، كان يسايره بالاستماع حتى يبتعدا وفي النهاية يعودان للمدرسة مع قرب موعد انتهاء الدوام.

مضت الأيام سريعًا حتى عاد لمسقط رأسه ظنًّا منه أنها أجازة ويعود للكويت التي قضى بها عامين وهو فرحًا.

قضى أجازته مع اثنين من أصدقاء الطفولة الذين لم تنقطع بينهم الصلة رُغم سفره، بل كانوا يحاولون أن يرسلوا له جوابات مع فشلهم في هذه المحاولة.

تنقضي الأجازة دائمًا بين ترحيب أهل وزيارة أقارب وإنهاء أوراق للإعداد للسفر مرة أخرى.

حتى فوجئ بذكر اسم دولة جديدة للسفر، لتتغير وجهته،ويذهب لبداية أخرى...

●●●

أصبح في البلد التي يقصدها الملايين كل عام والآلاَف طوال العام،كانت بداية موفقة ولتفوقه ذاع صيته مرة أخرى، اتسعت دائرة صداقاته وعلاقاته، كان معظم أصدقائه من جنسيات غير مصرية، غير خليجية، لا يدري لماذا يتجنب أبناء المصريين بعضهم في الغربة إلا نادرًا، ولم يكن هو يحب التعمق في الصداقة كثيرًا مع أبناء البلد.

كان كل ما يدور في رأسه حول المذاكرة ولعب الكرة والخروج مع منظمين النشاط الرياضي من المدرسة لأيام؛ بحجة المشاركة

في الألعاب الرياضية وخصوصًا الجري، كان يخرج كثيرًا مع أصدقائه السوريين، أحب لغتهم وكان ينسى أحيانًا ويتكلم مثلهم، كان له من الأردن وفلسطين وليبيا نصيب أصدقاء لا يمكن أن ينساهم حتى لو سقطت من ذاكرته الكثير من المواقف بينهم، كانوا بمثابة صورة مُصغرة لوحدة عربية.

لم يكن في قلبه إلا الحب لعائلته وأصدقائه والشوق لمن تركهم خلفه في وطنه.

لم يكن يُفكر في القادم أبدًا، لا يدري معنى لكلمة مستقبل ولم يكن يعرف حتى ماهية المرحلة القادمة بعد هذه الأيام التي تمر، ولم يكن في نيته أن يعرف.

فهو مستمر بتفوقه، بحياته مع أصدقائه، كانت الخلافات الصغيرة مع والديه تمر مرور الكرام وتعود الأمور لطبيعتها.

كانت حياته المدرسية بالجلباب الذي لم يكن يليق به كثيرًا، ولكنه كان يقبله، فهو يتأقلم مع الوضع أيًّا كانت ماهيته محاولاً الخروج بأقصى استفادة منه، ولا يتذمر أبدًا.

ظل على هذه الحال لعامين حتى جاء موعد تخرجه وبدأ يتسلل لمسامعه بعض الكلمات التي تدور بين والديه في نهاية العام الثاني له في تلك البلد عن المستقبل، وهل يدخل الشيء المسمى

بالجامعة هناك أم يعود لوطنه ليُكمل دراسته الثانوية علَّه يلتحق بكلية الطب ويصبح طبيبًا كوالده، فهو متفوق بطبعه.

لم يَعْلَقْ في ذهنه من هذه النقاشات إلا كلمة طِبّ التي دائمًا ما كره سماعها منذ صغره،والتي تتكرر كثيرًا على لسان أقاربه وأصدقاء والده، الذين دائمًا ما يختمون كلامهم معه بأنه أكيد سيكون طبيبًا كوالده وهو يبادلهم بابتسامة تسيير كلام ولا يعتقد أبدًا ولا يأمل أن يكون مثل ما يقولون يومًا ما.

●●●

opeikan.com

obeikan.com

الفصل الثالث

٢٠٠٩

كان القرار الأخير بالعودة لوطنه منفردًا لفترة، وبعد أن قضى الأجازة في إنهاء الأوراق ، ليس لسفره هذه المرة ولكن لتوطيد قدمه في بلده مصر، الاسم الذي دائمًا ما نناديه ولا ينادينا.

دائمًا ما تكون الفجوة متسعة بين من قضى سنين من عمره في الخارج وبين أقرانه في مصر سواء كان طفلاً، طالبًا أو عاملاً؛ فالحياة في مصر تتغير سريعًا وبطريقة مبهمة حتى على ساكنيها.

عاد مستسلمًا لقرارهم، يُعد العدة لدخول كلية الطب في النهاية، فهو وإن كان يكره الاسم فهو لم يتعرف بعد على رغبته الحقيقية، إذن هي حالة اللاخيار.

تساوى هو وأصدقاؤه هنا في بدء المرحلة المُنتظرة بروح التفاؤل، بنفوس يملؤها الأمل، كلٌّ يضع إحدى الكُلِّيتين أمام عينيه - هندسة، طب - فهما المستقبل في نظر طلاب مصر وذويهم.

شيئًا فشيئًا صَدمه الواقع، فبين مدرسة لم يذهب إليها إلا أيام تُعد على أصابع اليدين، لتنوب هذه الأيام عن العام بأكمله، وبين مجموعات دروس لا يعرف مدرسيها إلا الحفظ والحديث عن

كليات القمة وعن قصصهم في الحياة، نهاية بالأصدقاء الذين بدأ اليأس يجد طريقه إلى نفوسهم، وقف حائرًا أمام هذا المشهد، يقف وراءه أهله لا يسمع منهم إلا كلمات تتردد في كل بيت مصري عن حياتك ومستقبلك وعليك اعتبار نفسك في سجن لعامين؛حتى تلقى الراحة الدائمة بعدها، فقد هويته، اصطدم كثيرًا مع بعض أصدقائه، اصطدم أكثر بأفراد عائلته. فبالإضافة إلى أنه لا يدري ما يريد، فهو أيضًا فقد الروح التي كان يعيش بها قبل عودته لمصر، افتقد البيئة التي كانت تساعده على الحياة والتطور قبل عودته.

عاش أيامه بين يوم ضحك ويوم بكاء، يوم من الاندماج وأيام من الانحسار عن الجميع.

فعندما لا تعرف ما تريد، تحدث الكثير من الأخطاء.

مضى عامه الأول بين الذهاب للدروس والجلوس مع أصدقائه على المقاهي أو الوقوف على نواصي الشوارع، تحميل الأفلام العربية والأجنبية ومشاهدتها في المنزل والمذاكرة ليلاً مستمعًا للراديو، واضعًا قدميه على المكتب أمامه، يُذاكر فقط ما يُشعره بالاستمتاع، مهملاً الباقي.

كثيـرًا مـا حدثـه والـده عـن المسـتقبل، يـرى فقـدان الأمـل في عينـي أمـه مـع محاولاتهـا المسـتميتة لـرده لصوابـه. يؤلمـه ذلـك لكـن مـا بيـده حيلـة فهـو يسـير عكـس تيـار نفسـه ولـم يعتـد ذلـك.

مـرت أيـام الامتحانـات عصيبـة علـى أسـرته ولكنـه كان هادئًـا خـلاف الجميـع. مـن بـين جميـع مـا درس لـم يكـن يثـق إلا مـن إتقانـه لمـادة واحـدة- الرياضيـات- وأجـزاء مـن مادتـين أُخْرَيـين همـا القصـة الإنجليزيـة والقصـة العربيـة، فهـو يهـوى القصـص منـذ صغـره فقـد كان معتـادًا علـى قـراءة روايـات أجاثـا كريسـتي قبـل عودتـه.

نجـح بالمجمـوع الـذي لا يَنشـر البهجـة ولا يُخـزي، فهـو مجمـوع يضفـي علـى الحيـرة حيـرة.

أسـرَّ لأحـد زملائـه برغبتـه في سـلوك مسـار الهندسـة، ومـا أن تَسَـرَّب الخبـر لعائلتـه، حتـى تحولـت معالـم الوجـوه، وظهـرت المعارضـة، فآثـر الصمـت والسـير في طريقهـم حتـى النهايـة. فهـو والنسـبة الأكبـر مـن جيلـه يقعـوا فريسـة لأقصـى درجـات تصـارع المشـاعر في تلـك الأيـام، فبـين مـاضٍ لـم يُؤَهَّلُـوا للاسـتفادة منـه والاسـتمتاع بـه، وحاضـرٍ لـم يختـاروه و يشـعرون بأنهـم عالقـون بـه، يحاولـون أن يظلـوا صامديـن رغـم الضربـات التـي تُـكَالُ لهـم، إلـى مسـتقبل لا يـرون منـه أيـة بشـائر، فيحاولـون صناعـة صـورة هشـة لـه بمـا يتـاح لهـم مـن إمكانيـات.

وقبل اللوم على المدرسة والمدرس، والصداقة والأصدقاء، والدولة والحكومة، فاللوم الأول يقع على الأهل لشيء واحد؛ وهو أنهم منذ نعومة أظافر أبنائهم يقتلوا بداخلهم القدرة على التَعرُّف على دورهم في الحياة، وبذلك نشأة دولة كاملة مشوهة وقائمة على فكرة الاستنساخ.

فلا لوم للأهل على الفقر ولا على مستوى الثقافة ولا على انشغالهم بالعمل، فالناجحون لم تقف أمامهم هذه العوائق طالما ترك لهم أهلهم العنان لاستكشاف دورهم الحقيقي في الحياة، وساعدوهم لتحقيق هذا الدور، فهو يحسدهم على ذلك، يحسدهم لأنهم عرفوا دورهم، يحسدهم لأنهم يعملون ما يحبون.

فتَحّت هذه الظروف لا يستطيع العيش بسعادة حقيقية وتحقيق النجاح إلا اثنان، هما من عرف دوره وعمل له ، ومن توافق مع الدور الذي تم رَسمه له وعَمل على أن يَبرع فيه.

فبذريعة تأمين المستقبل...تُقتل الأحلام...وبداعي الخوف... تُقتل الأنشطة والمرح والسعادة... ولتحقيق الأمان...تُقتل المحاولة.

ويحاول هو وكثيرون غيره استكشاف أنفسهم جاهدين؛ ليفاجئوا بأنها دُفنت بداخل أعماقهم وأصبح السبيل لمعرفة محتواها يحتاج لمغامرة كبيرة كغواصين يبحثون عن كنز ضاع في

المحيط ،ومر عليه أعوام، وحتى وصولهم لهذا الاكتشاف يُهدئوا من روعهم بأن الأقدار مكتوبة

ولعل اللّه يُحدث بعد ذلك أمرًا ...

●●●

بعد انقضاء عَامَهُ الأول بمصر، كان قد استعاد لهجته المصرية كاملة بعد ما عاناه من طُغيان الكلمات الشامية والتعبيرات الخليجية على كلامه.

سافر في أجازة لمدة أسبوعين ليُفاجأ كما تفاجأ الجميع بثورة شعب يعشق الاستقرار،يعيش على المسكنات ولا يقبل العلاج بحجة أنه يخشى الألم، شعب يُفَضِّل الأمان الشكلي على الطمأنينة، يُفَضِّل الرئيس أيًّا كان موقعه على سائر الناس.

كان فرحًا بتَرَقُّب، فهو على صغر سنِّه كان يرى في وجه مصر عبوسًا، واكتساءها بآثار الكهولة. كان يرى الشقاء مرسومًا بدقة على وجوه أهلها، كان يرى الظلام في جميع أجوائها، أصاب هواءها الكمكمة، كان يشعر بالاكتئاب يملأ أرجاءها ويسير في شوارعها.

تحجج بحاجته لبداية دروسه؛ لينجح في قطع أجازته، والعودة تاركًا أهله ليلحقوا به.

عاد وكان الجو يكسوه الأمل بعد نجاح الثورة، كانت رائحة التفاؤل تملأ الأرجاء، تلك الرائحة التي كان يفتقدها، رأى الناس يسيرون رافعي الرءوس، واثقين بأن الله إذا أطال المدة للظالم فإنه في النهاية سيمحوه،فهو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

ظل الجميع لأيام يعملون بجد، يساهمون في كل شيء، روحهم عالية، تمنَّى لو يستمر الوضع هكذا، أحب مصر كثيرًا تلك الأيام، فرغم اغترابه عن الوطن إلا أنه يحبه ويتمنَّى له الوصول للقمة.

انشغل بدراسته، متابعا أحوال الوطن من حين لحين، فوجئ بعد عودته بمُدَرِّسِه يُخبره أنه لن يتمكن من استكمال دروسه معه منفردًا، وينصحه بالانضمام لفتاة بحجة أنه يستطيع توفير وقت واحد، لا لأحدهما ولكن لكليهما مع بعض.

وافق فيكفي ما أضاعه من الوقت قبل بدء دروسه.

استعد جيدًا لأول لقاء، فهو وإن لم يكن يعلم شيئًا عن المادة سابقًا لكنه ظلَّ ليلاً يذاكر منها على مقدار ما يستطيع، فهو يريد لنفسه الموقف الأقوى من أول لقاء. وقد ظهر من أول لقاء كخبير فيزياء.

ظلَّ لأيام يذهب للدرس دون أن يرى ملامح وجهها، فهو بطبيعته لا يُحبذ مواجهة الوجوه، إلى أن أتى اليوم الذي بدأت فيه بمحادثته لتخبره باقتراح لها تُريد عرضه على المدرس، تلا تلك المرات مرات كثيرة يتجاذبان فيها أطراف الحديث، تحادثا وضحكا وأضحيا أصدقاء، رأى الصداقة تتطور سريعًا، فسارع للحد من ذلك.

كان دائمًا ما يستمع لعلاقات أصدقائه العاطفية فيُخبرهم ببعض النصائح ويستبعد لنفسه الدخول في مثل هذه العلاقات قريبًا، عندما كان يسمع بمشكلة عن أحد أصدقائه كان يُفَضِّل الابتعاد عن أي علاقة أكثر.

كان يقضي اليوم بين دروس وأصدقاء

ويقضي الليل بمذاكرة واستماع لأم كلثوم؛ فهو يُحب حالة العشق بدون معشوق، يستمع لكلام الحب ولا يحبذ وجود حبيب، يَحفظ لنفسه هدوءها واستقرارها.

قارب العام على نهايته، وبدأت تلوح في الأفق الأحاديث عن الجامعة والمستقبل.

انقضى العام وبين انتهاء الامتحانات وانتظار النتيجة، وَدَّعا بعضهما، تعاهدا على التواصل كل حين وأوصى كلٌّ منهما الآخر عدم التردد عند الحاجة للمساعدة.

محا رقمها، الرسائل التي كانت تدور حول الدراسة، ظنًّا منه أن الصداقة انتهت بانتهاء تلك الفترة، فهو دائمًا لا يترك أي أثر للأشياء القديمة، يمحو كل شيء سريعًا.

أنهى الثانوية بمجموع يعطي الأمل ويمحوه في نفس الوقت، لم يكن يدري أي كلية يرغب بها ولا أي وظيفة يُفَضِّل أن يكون فيها مستقبلاً.

ألحَّ عليه جَدَّه ليكتب جميع كليات الطب في التنسيق فوافق مع تأكده أنهم ليسوا من نصيبه، وهذا ما كان يحمد الله عليه، وفي ظل انتظاره نتيجة التنسيق كان والده مشغولاً بالبحث له عن بديل، يأتي بالمال ليبحث له عن تعليم يظنه الآباء الاستثمار الوحيد في مستقبل أبنائهم، وهو على حالته من عدم الاكتراث،يتحدث حينًا عن كلية الإعلام، وحينًا يصمت، استفزَّ صمته والده فأخذه عنوة في صباح يوم لرؤية عدة جامعات، لينتهي به المساء مقيدًا بإحدى كليات الطب ولكن بمُسمى أخف وطأة...أسنان.

رُسم له بداية جديدة ساهم قليلاً في اختيارها، تحمل بين طياتها الكثير.

بعد عدة أيام أتته مكالمة من صديقة الدرس تطمئن عليه وتسأله عن الوجهة التي ذهب إليها، أخبرته برغبتها أن تدخل الكلية التي سجل فيها، استمع لها مع اعتقاده أن هذا لن يحدث...

تواعدا بالتواصل...وسكتا.

●●●

الفصل الرابع

٢٠١١

بعد انتهاء موسم التقديم للجامعات وجد من أصدقائه من حالفه الحظ وحُقِّقَ له أمنيته بدخول الكلية التي يتمناها، ومنهم من حَقَّقَ رغبته أو رغبة أهله بالمال بفارق كبير، ومنهم من وقف حائرًا نادمًا على كل يوم أضاعه سابقًا ينظر لدَرج الكليات، لكن لا يمكنه أن يخطو خطوة، يتوجه به التنسيق لأحد السلالم ليصعده مرغمًا حتى يأذن الله بفتح من عنده أو يصير إلى ما لا يريد.

انقطع عن كل أصدقائه القدامى عدا ثلاثة بانتقاله للسكن قُرب الكلية، وفي ثاني يوم من انتقاله نزل صباحًا ليمارس هوايته المفضلة، الجري، وليستكشف المنطقة أيضًا وهوا يردد في نفسه «ما الذي أتى بي إلى هنا» «فمع كل خطوة للأمام نشعر بالحنين للحال السابق قليلاً»

بدأ عامه الأول بقليل من الأصدقاء.

وضع قدميه على أول خطوة، كانت تراوده نفسه بسؤالها عن رغبته، وهل هذا طريقه! قاطعها ووضع لها زمنًا حتى يُزيل هذا التردد، عاهد نفسه باستكمال هذا الطريق إذا نجح عامه الأول

هذا بتفوق، أما إذا لم يكن ذاك فسيلبي نداء نفسه الذي لا يعرف ماهيته لكنه متأكدٌ أنه غير الطب،انقضى العام الجديد بصعوبته الدراسية، بأعراض انتقال الفكر من طالب ثانوية عامة لطالب جامعي، وكلية طبية بالتحديد.

انقضى بين عدد أصدقائه المحدود الذي كان سعيدًا به، ولا يعرف كيف أصبحوا أصدقاء! وكيف تطورت صداقتهم هكذا؟

ختمه بتفوقه هو وأصدقاؤه فكان قرار الاستمرار.

●●●

في إحدى ليالي أجازة العام الأول، كان جالسًا بين النوم واليقظة، ومن المفترض أنه يشاهد التلفاز، إذ فوجئ برسالة منها.

أفاق من هذيانه، ولا يُنكر أن المعارف القديمة تُحيي الإنسان من ركوده إذا حضرت فجأة.

تُعاتبه صديقة الدرس على عدم سؤاله، لا تعلم أن التواصل من الأمور التي يعترف بفشله فيها، اطمأنت عليه، سأل عن أخبارها، وبحث عن بعض المبررات، تبادلا الحديث قليلاً.

حتمًا كانت تحادثه من حين إلى حين، كان يشعر أحيانًا برغبتها في تطور العلاقة، كان معتادًا في حياته على وضع

الاحتمالات لكل شيء وتجهيز ردود فعل لها في رأسه، وعندما سأل نفسه لو جاء يوم وصارحته فيه بشيء، ماذا سيكون رد فعله؟لكنه لم يجد جوابًا، فكان يُرجئ السؤال لحين،

فأمور الصداقة والحب لا يكترث لها ويتركها دائمًا للأيام، ودائمًا ما يجدان الطريق إليه.

●●●

استمرت أيامه في الجامعة على عاداته السابقة، بين المحاضرات والجلوس مع أصدقائه والكورة، والنوم النوم، النوم الذي هو سلاح الشباب كبديل عن المقاهي، إذا لم يكونوا تعرفوا على القراءة بعد.

أصبح يَعرفه عدد لا يُستهان به، ولا يعرف إلا القليل، وهو يعشق ذلك، فدائمًا يكفيه القليل من الأصدقاء، القليل من المعارف، لا يُحب معرفة التفاصيل، يكفيك لتكون صديقه «لَقَبَكْ» فلا يهتم ولا يَهمه عائلتك، منشأك، دينك أو حتى تاريخك.

ظل لفترة كبيرة لا يعرف عنه أحد شيئًا إلا «لَقَبه» الذي اعتادوا على مناداته به، عرَّف أصدقاءه لاحقًا أنه ابن لجراح ماهر يعشق الطب ويتنفسه كالهواء، يبذل من أجله الغالي والنفيس، يحمل رايته ويتمنى أن يُسلمها يومًا من الأيام لابنه.

يطغى عليه عشق البساطة، فمع جلوسه بجوار أصدقائه في أوقات فراغهم في الجامعة لا لشيء إلا المزاح والضحك، خروجهم لمشاهدة ماتش المنتخب المهم على القهوة البلدي، لعب الكورة كل أسبوعين، لصلاتهم جماعة عندما تحين الصلاة وهم مجتمعين، لعدم اهتمامهم بأي شيء مما يدور حولهم في الجامعة سوى مواعيد الامتحانات والأجازات، لأبحاثهم التي كانت تُنهى على المقهى، ولو وجدوا مشكلة في المراجع كانوا يُضيفون تشكيلة حلوة،

كانت أيامهم هكذا ويالیتها استمرت على هذا المنوال، يذهب لتلك الصور على جهازه، يقلب فيها، تأسره تلك الضحكة الصافية فيها.

●●●

في بداية عامه الثالث، ذاع صيته وشهرته، اتسعت دائرة أصدقائه ومعارفه، أصبح لقبه يتردد كثيرًا، أُعْجِبَ الكثيرون بقدرته على إدارة الأمور والتنظيم ولكنه كان لا يعير اهتمامًا لكل هذا، كان لا يعير اهتمامًا للحياة، كان همه أن يعيش لا يشغل باله إلا القليل.

أراد مرة أن يُكافئ بعضًا من الذين يحذون حذوه في مساعدة غيرهم، فأرسل لها بعض المراجعات الهامة من ضمن من أرسل لهم وهو لا يعرف من تكون.

انتبه ذات مرة هو وأصدقاؤه لقيام فتاة بعرض محاضرة، تمتم بعدة كلمات وخرج هو وأصحابه دون أن يكملوا متابعة محاضرتها، وكان مما قاله أن المحاضرة تبدو جيدة وما قامت به في أولها يدل على ذكائها،،، لم يكن يعلم ما يخفيه له القدر...وما يخفيه لتلك الفتاة التي مدحها بكلمات عابرة، لم يرها، ولم يسمع عنها ولم ترد إلى ذهنه لفترة كبيرة، فهو لا ينتبه للآخرين بسهولة.

عاد الإيمان بالتسلل ثانية لخلايا جسده بعد أن غاب عنه لفترة، كان يحافظ فيها على طقوس دينه ولكن كالآلة، فهو حتى في أيام بُعده عن الله كان يُحافظ على أبسط صلته به وهي الصلاة.

يحتار أهله قبل الغرباء في تدينه، فهو لا يحبذ قراءة القرآن أمام والديه، كان يشعر أنَّ رضاءهم وسعادتهم بذلك حينها يخالطان رغبته في رضا ربه،

كان قليلاً ما يقرأ القرآن وحده ليلاً حريصًا على أن لا يسمعه أحد، كثيرًا ما كان يغضب منه والده لعدم الاستماع لنصيحته بالاستيقاظ لصلاة الفجر، كانت والدته تستغرب مواظبته على القيام لصلاة الفجر في المسجد عند سفر والده، وانقطاعه تلقائيًّا عند عودته.

لم يكن له من سيطرة على تلك الحالة، فهو دائمًا ما يظهر تقيًّا أمام العاصي، وعاصيًا أمام التقيّ كأنما يختبر علاقته مع الجميع التي يجب أن تكون بلا شروط، يريد أن تكون علاقته باللّه خالصة على أفعاله القليلة، لا يُحب أن يتحدث عن دينه مع أحد، يتمنى أن لا يراه أحد وهو يصلي، ولا يسمعه أحد وهو يقرأ القرآن غير اللّه.

مطبقًا مقولة: « اصنعوا للّه طريقًا لا يراكم فيه أحد، ولا يعلمه أحد، خبئوا لأنفسكم صالحات تنفعكم يوم لا ينفعكم فيه أحد »

هكذا كان يعيش أيامه بين إقبال على اللّه وإعراض عنه، ولكنه كان محافظًا على صلة أساسية مع خالقه، كان يملؤه التفاؤل أيامًا ويغزوه الشك وفقدان الثقة بالقَدر أيامًا أخرى، كان يُدرك حقيقة أنه مع اللّه يكون بخير، وبعيدًا عنه تفترسه الأيام.

كان يُقبل على أصدقائه أيامًا ويُعرض عنهم أيامًا أخرى، يُحدثه أحدهم مرة عن اختلاط شخصيته بالكِبْرِ والغرور،فرؤيتهم له من بعيد تنعكس في كلماتهم عندما يتحدثون معه ويُسهبون في الحديث،فدائمًا ما يسير وظهره مفرودًا حتى لا يسمح له بالانحناء مع طوله، حتى قدميه يحافظ على استقامتها أثناء سيره، تكون رأسه مرتفعة قليلا ويظهر ذلك جليًّا في صوره التي

تلازمها نظرته التي عادةً ما تكون ثاقبة وابتسامة نادرة للكاميرا، لا يجد ما يرد به فيبتسم ويصمت، يدب الخلاف بينه وبين بعض أصدقائه لكنه ما يلبس أن ينتهي سريعًا، اتخذ الأمر منهم فترة كبيرة حتى فهموا شخصيته وساد بينهم السلام التام.

كانت في هذه الأيام تصل لمسامعه قصص وحكاوي أبطالها أصدقاء في الجامعة، ومشاكل كان يساعد في حلها ثم يحمد الله أنه عافاه مما ابتلى به غيره، كان يتمسك بنفسه أكثر وأكثر.

حتى جاء اليوم الذي ذاق فيه كل شيء عابه في أصدقائه، اليوم الذي أُسرِت فيه نفسه بدون معركة، اليوم الذي دخل فيه إلى ذاكرته شريط لا يعرف إلى أي نهاية سيؤول.

●●●

كان كثيرًا ما يُفَضِّل السير في الشوارع ليلاً لمسافات طويلة ينظر إلى وجوه الناس يتأملها، يحاول أن يستشف آثار الدنيا على وجوههم.

كانت تحدث أمامه الكثير من المواقف التي لا يملك لها إلا الضحك وسط استغراب من حوله.

كان كثيرًا ما يمر بتجمعات الشباب والمقاهي، يريد أن يتوقف ويحادثهم بأعلى صوته أن لا يضيعوا حياتهم بعيدًا عن الله، يظنون

أنهم بخير وهم ليسوا كذلك فذلك الطريق وإن بدا موحشًا لا خير في غيره.

يُريد أن يمسكهم واحدًا واحدًا ليُخبرهم بالتوقف عن تضييع وقتهم وصحتهم وسرد انتصاراتهم الوهمية وهم جلوس على كراسي المقاهي، يُريد أن يحاربوا من أجل المستقبل الذي أصبح عنيدًا ولا يلين إلا للمجتهد السائر في طريق الله حتى لو كان بطيئًا، المهم أنه على الطريق.

ولكن حتى لو حادثهم فلا حياة لمن تنادي، فالعقول أصبحت صغيرة جدًّا هذه الأيام، والشباب أصبح تائهًا، يهيم في الدنيا محاولاً التشبث بأي حبل يظنه طوق النجاة لينتهي به الحال وحيدًا ضائعًا فاشلاً، أو يتوقف سريعًا ليُنقذ ما يمكن إنقاذه ويُلملم شتات نفسه.

يريد أن يخبرهم أن يقرءوا، ولكنهم لم يعودوا يفهموا غير لغة الحفظ.

يُريد أن يعيد على مسامعهم قول ابن الجوزي:» أن مشقة الطاعة تذهب ويبقى ثوابها، وأن لذة المعصية تذهب ويبقى عقابها«

يُريد أن يخبرهم عن قصصه هو وأصدقاؤه، يُخبرهم عن تجاربهم وما آل إليه حال الكثيرين منهم علَّهم يفيقون.

يُريد أن يخبرهم أن يكونوا مع اللّه بقلوبهم، فيكون كل شيء معهم.

يُريد أن يختصر عليهم الطريق كما يريد كل أب لابنه، حتى لو حاول ذلك الأب القيام بهذا بالطريقة الخطأ.

يُريد لهم الخير.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الخامس

٢٠١٤

في وسط كل هذا برزت هي لتطيح بكل قواعده، هي التي أخذته من الحياة فترة أو لنقل أخذته للحياة، لم يأتِ في ذهنه أن اجتماع بسيط سيُدخله هذا العالم الغريب المسمى بالحب.

لكثيرًا ما حاول تجنب حضور هذا الاجتماع حتى الدقائق الأخيرة، لا لشيء غير أنه حسب القوانين لم يكن من المفترض أن يكون هو، ولكن شاءت الأقدار ونَفَّذَ مشيئتها زميله الذي كان من المفترض أن يكون هوا الممثل للطلبة في هذا الاجتماع ولكنه خشي ذلك وتنحى.

ظل طوال الأجازة مشغولاً بإصلاح ما أفسده حادث والده بالسيارة، كان يذهب ويجيء ولكن بقلب لم يرَ الحياة بعد، انكب على القراءة يُشغل بها عقله عن التفكير بها.

وفي هذه الحالة المليئة بالفوضى برزت صداقة قديمة، ولطالما خشي من هذا اليوم.

طوال هذه السنين كان يخطر بباله أحيانًا سؤال « لو صارحته فتاة الدرس بحبها، تُرَى كيف سيكون رد فعله؟ولكنه لم يصل أبدًا لجواب»

عادت فتاة الدرس تحادثه كثيرًا هذه الأيام ولكن القلب ينظر هناك في الجهة الأخرى، شعر أنها قَربت من المصارحة من كلامها، مما كانت ترسله، وحينها كانت تتملكه رغبة في النوم بعمق، فعندما يأبى القلب، تأبى معه كل الجوارح.

جاء صباح كان يجلس فيه في مقهى منتظرًا أن تبدأ المصلحة الحكومية القريبة منه العمل، علَّ الموظف يأتي في موعده، وبينما هو على حاله ذاك، إذ جاءته رسالة منها بتمنِّي الخير صباحًا، وبعد عدة جمل وجد جملة مقتضبة تُخبره بالقطيعة إذا كانت تلك رغبته، أخبرها مازحًا هل أصبحتِ تبيعين بسهولة، ردت بأنها لو كانت تبيع بسهولة لما ظلَّت طوال تلك الفترة بلا زواج معللة بأنه هو السبب، ثم صمتا، صمتا الاثنان،ومحاولة منه لكسب الوقت، أخبرها أن تشرح أكثر؛ لترد بأنها لن تنطق بحرف آخر.

بعث لها ما يُفهمها أنه سيواصل الحديث بعد قليل، فقد حان وقت التحرك للمصلحة ثم يعاود الكلام.

إذن جاءت اللحظة التي طالما كان يخشاها، ظلَّ طوال الطريق من المقهى للمصلحة يسير بقدميه وعقله مسافرًا بعيدًا، يفكر في كثير من الردود، من الاحتمالات، ماذا يخبرها، تمنَّى أنه لم يفتح النت صباحًا، بل تمنَّى أنه لم يأخذ درس مع فتاة أبدًا، لم يجد من عقله جواب، فقرر المراوغة حتى يرى إلى ماذا ستؤول الأمور.

لم يعاود محادثتها يومها إلا ليلاً، فهو في محاولات مستميتة طوال اليوم للخروج بالرد المناسب، غير قادر على كسر القلوب، وفي ذات الوقت يكره المجاملة في المشاعر وفي الحب بالتحديد.

ظل ليلتها يناور معها في الحديث، حتى سألته هل كان في علاقة في الجامعة أو حاول التقرب من إحداهم؟ عرف حينها أنها كانت تُراقِبَ من بعيد كل ما كان يكتبه وما ينشره من صور على موقع التواصل الاجتماعي.

أخبرها كذبًا أنها محاولة عابرة ولم يُكتب لها النجاح، كان يُدرك كذبه في أول كلمتين، ولكنه صادقًا في اعتقاده في آخر كلمتين.

لا يذكر كل تفاصيل ما دار بينهما ليلتها، لكنه أقنعها بتأجيل ذلك الحديث لحين انتهائه من إصلاح سيارة والده.

أوصاها أن لا تُخبر أهلها بشيء، حتى يتناقش مع أهله، ولكنها لم تقدر على الكتمان.

حاول مستميتًا إقناع نفسه أنها النهاية وعلَّها تكون بداية جديدة، ولكن نفسه أبت.

كانت تحادثه كل حين، تُعاتبه على عدم كلامه، ولكن ما بيده حيلة، فهذا طبعه من قديم الأزل حتى بدون إباء نفسه.

كان يسمع منها، وصوت الجامعة في أذنه، يقرأ منها وعينه لا ترى سوى صور الجامعة، جادل نفسه ولكنها أبت، عصته ولم يعتد على ذلك.

●●●

حادثته بعد فترة باقتضاب، سألها ما بها وهو يدري، أخبرته بشعورها بجموده ناحيتها، فلم يجد بُدًّا من المصارحة.

صارحها أنه لم يكن ينوي الدخول في أي علاقات نهائيًّا، وأنه أُعجب بإحداهم في الجامعة وتوقف الأمر عند هذا الحد، سيستمر على نيته وأنه حاول مع نفسه ولكنه لا يقدر، أبت إلا أن تعطيه فرصة للتفكير، علَّه يغير رأيه، قَبِل الفرصة مع علمه بعدم تغير النتيجة.

صمتًا لأيام، ثم حادثته فلم يُرد المراوغة بعد الآن، أفضى إليها بعدم مقدرته، فهو إن لم يصل إلى ما يريد فلن يُكمل مع من يقابله، وخيرًا لهما أن يظلا أصدقاء، قالت له: « انتهى الأمر، وانتهت الصداقة «

حاول التخفيف من وطأة الأمر بإصراره على استمرار الصداقة، فقالت له: « لا صداقة بعد حب»

ظن أن الأمور انتهت عند ذلك الحد، لم يعرف أنه سيدخل

فصلاً جديدًا في تلك الرواية، فصل طويل لا يعلم نهايته إلا الله، فصل لم يُعد له العدة، ولم يُحسن التدبير فيه.

كان يقضي أجازته في التنقل بين مراكز قطع الغيار، والورش والجلوس بل والنوم أحيانًا بجانب سيارة والده في الورشة، يقرأ الكتب ويتسامر مع أصحاب الورش عندما يستنكرون عليه تلك القراءة والثمن المدفوع في تلك الكتب، يؤمنون أنها بلا فائدة.

وتستمر الحياة في مداعبته، تستمر في طرح الشبه أمامه ولو بأقل التفاصيل...العينين.

في ليلة من تلك الليالي كان يسير ليلاً، شعر بالجوع، وخطر بباله أن يبتاع شيئًا ليأكله من محل يبيع الفراخ المشوية وأخواتها، حجز دوره، وبينما يقف متأملاً الناس وهي تتهافت على الشراء، إذ ينتزعه من ذلك اقتراب عينين وعباءة منه، تسأله إذا كان بإمكانه أن يبتاع لها، وتعطيه ثمن الأكل معللة ذلك بأنها لا تستطيع الدخول في هذا الزحام الشديد

توقف لثوانٍ، ليردف، لا بأس أخذ المال، وطلب لها الأكل، بل زاد على المال من نفسه فهم يُكرَمون لأجلها، يُحدث نفسه يالا الحياة وألاعيبها، لا تتركنا وعبثنا هكذا أبدًا حتى تعبث بنا ومعنا.

●●●

بدأ العام الدراسي الجديد، وكان ما يدور في ذهنه عن كيفية تجنبها، يخشى أن تشعر به حملاً عليها، أراد أن يكون طيفًا خفيفًا.

استطاع لأول أسبوع دراسة بأكمله أن لا يراها، ولكن يبدو أنها رأته بشروده، بصمته، ومع أن صمته وكآبته حينها كانت تتداخل فيهما عوامل كثيرة ولكنه لا يستطيع أن يُنكر أنها كانت جزءًا منه ولو جزءٌ قليل جدًّا حينها.

وفي وسط الزحمة التي أحاطت به، والدوشة التي كانت تصم أُذنه، وبينما هو جالسًا بجوار سيارة والده لوضع اللمسات الأخيرة عليها، كان يدور نقاش بينه وبين زملائه على جروب الدفعة، ووجد فجأة سؤال مقتضب منها، وسط كل التعليقات كان هو التعليق الأهم.

ربما كانت تختبر رد فعله، هل تراه غاضبًا منها، هل سيستمع إليها، رد بإجابة طبيعية، ولم تكاد تمر ثوانٍ حتى وجد رسالة منها.

كانت بطارية هاتفه على وشك النفاذ، فأغلق اتصاله بالإنترنت، ثم استقل السيارة ليذهب بها في مهمة تجريبية وفي نفس الوقت يوصل أحد العاملين في ورشة الإصلاح إلى سكنه

بالدويقة، تلك المنطقة التي ما تلبث أن تدخلها حتى ترى العشوائية تحكم بأبشع صورها.

وفي أثناء السير كان يدعو هاتفه أن يشحن بسرعة على شاحن السيارة ولكن كانت الطبيعة تُلاعبه، فعندما وصل الدويقة وصعد لمنطقة في أعلاها كانت الإشارة قد ضَعفت، جاهد حتى يحصل على إشارة اتصال، كان يُرسل ولا تُمهله الإشارة أن يرى الرد.

بعثت له تُسلم وتطمئن على حاله وتعاتبه على عدم سؤاله عن نتيجتها،يعتذر، لا يجد ما يقول، ينتقلون من موضوع لآخر، يحاول مباراتها في سرعة الكتابة فتلك مشكلة يجدها مع كل من يحادثهم، وفي النهاية سلام.

لأول مرة منذ ثلاثة أشهر تسري الفرحة في عروقه، كان يقود السيارة في طريقه للنزول كأنما يتراقص بها على الطريق، يُغني بأعلى صوته، كان يكفيه فقط ذلك، لم يكن يطلب المزيد.

فقد كان كل ما يريده أن يُتسنى له التأكد من عدم غضبها منه، وأن تعود المعرفة السطحية البسيطة.

دخل بيته متأخرًا وقد هجره النوم تلك الليلة، فعندما تملكنا السعادة الحقيقية يَحرم علينا أن نُضيع تلك الساعات بالنوم.

نظـر لبروفايلهـا تلـك الليلـة وكانـت هـذه المـرة الثانيـة التـي يأتـي في بالـه أن يُلقـي نظـرة عليـه منـذ بدايـة الأجـازة، فلـم يكـن قـد اسـتوعب سياسـة تبـادل الرسـائل المبهمـة عـن طريـق البروفايـلات بعد،وجـد الكثيـر ولكـن كان ممـا وجـد:-

U don't need to act so complicated to prove U have a " personality, Sometimes simplicity is the way to go, Cuz no " one likes a snooty or at least this is the way I think

إذن لقـد حـدث مـا خشـي منـه، فهمـت صمتـه خطـأ، ظنـت تجنبـه تعجرفًـا، تـأذت ولـم يرغـب في ذلـك أبـدًا فَكَّـر في كيفيـة الـرد عليهـا، اهتـدى إلـى عـدة أسـطر يكتبهـم ليُبـرئ سـاحته.

"-Don't try to Understand me because you will never be able to do it but relax & feel free, you are not the reason behind my complications.

- Don't Ask me why it happened from the beginning, because I asked myself but I couldn't get an answer, sorry to disturb your kindness.

- The only thing you have to know, that I respect you all the time."

وتلقى منها ردًا أدى إلى تلطيف الأجواء وهدنة مؤقتة.

●●●

كانا يتلاقيان بالنظرات العابرة كل حين وحين، يحاولان استكشاف أسرار أَعْيُنِهِمَا.

فوجئ عندما دخل العيادة في أول الترم وبعد توزيع الطلبة على أماكن الشغل، بلُغة طب الأسنان Units وبلُغة العامة كراسي الأسنان، وجد نفسه مع صديقه في الجامعة من أول يوم، خاطر، اللي هو لاسع وطاقق وملوش بر، وممكن يبقى ماشي جنبك وفي لحظة متشوفوش، بس بيفقعك كلمتين ساعات تعديهم وتفهمهم بعدين أو يغيروك في لحظتهم أو ملهمش أي تلاتين لازمة،لم يفهم أحد صديقه مثلما فهم كلاهما الآخر، لكنهما بالرغم من ذلك متباعدان عقليًّا وفي صفاتهم، وكان في مقابلهما زينة وإحدى صديقتيها المقربتين، فكما أن كراسي الأسنان متلاصقة دائمًا إلا أن بعضها يفصل بينهما أحيانًا ما يُشبه الطاولة، وبها حوض مياه في إحدى جوانبها يستخدمها هو وأقرانه في وضع أغراضهم، وكانت تلك الطاولة هي ما يفصل بينهما،ليُخبره خاطر وهو يهم بالقيام هامسًا وضاحكًا في نفس الوقت: « ربنا يكون في عونك، حقيقي أنت بطل عشان تستحمل كده» ليبادله بابتسامة صامتة، تخفي خلفها كثيرًا من الشك، والتردد، والتمني،والأمل.

وكطلبة أسنان، يتدربون على أسنان طبيعية مخلوعة من موتى أو أحياء لأي سبب، استعدادًا للتعامل مع المرضى لاحقًا، ودائمًا ما يواجهون مشكلة في إيجاد تلك الأسنان بالكميات الكافية للتدريب.

تحدث أصدقاؤه أمامه في هذا الأمر، فأخبرهم أن من يجد منهم، يُحضر له بعضًا من الأسنان، فدائمًا لا يهتم إلا بما يعجز الآخرون عن القيام به، وعدَّ لهم الأنواع التي يريدها، فللأسنان تسميات خاصة عندهم.

كانت الدراسة لا تزال في أول أيامها ولا يجد ما يفعله، فتارة يُرتب غرفته، وتارة يجلس على حاسوبه، وتارة يشاهد التلفاز مع والدته، ليجد رسالة منها تسأله هل يعرف أيًّا من أماكن بيع الأسنان أو أنه اشترى حتى، رد موسى أنه سمع من أصدقائه أنها تُباع في مشرحة زينهم، أو كلية طب القصر العيني، لتُحذره بأن عليه المسارعة لشراء بعض الأسنان لأن هناك أزمة، وأنها ذهبت للبحث في تلك الأماكن ولم تجد شيئًا، أخبرها أنه سيفعل، وفي نفس الوقت حادثه صديقه هارون بلغته الساخرة المعاتبة لتأخرهم الدائم في فعل أي شيء: « مش هننزل نجيب سنان ولا إيه؟ دي الدفعة كلها نزلت تدور»

ليرد موسى:» هننزل يا باشا»

هارون الذي يبدو التردد والاستفهام على ملامح وجهه دائمًا، واللذان بدأت صداقتهما على نحو لا يذكره، ولكنها ما تلبس أن تقوى مع مرور الأيام،

تقابلا في المترو، فالذهاب إلى هذه الأماكن من القاهرة أشبه بالانتحار، وعندما وصلا إلى المنطقة المجاورة لكلية الطب وشرعا في البحث وجدا أن معظم المحلات قد نفذت منها الأسنان، وبعد التعب من اللف والبحث، توقفا ليشربا العصير فهو من الأشياء التي يُداوم عليها هارون، وقابلا زميلين تعبا من البحث أيضًا، فدعوهما لمشاركتهما شُرب العصير، وتناولوا بعض الأحاديث التي تدور في فلك الأسنان ومشكلتها ومتى تتدخل الجامعة لحل المشكلة، وتبادلوا المعلومات عن المحلات التي بحث فيها كلاهما، ثم انطلقوا جميعًا ليكملوا البحث، لكنهم عادوا جميعًا بالعدد القليل بعد هذا التعب، ناقمين على اليوم الذي دخلوا فيه تلك الكلية، وهذه الجامعة.

عاد لمنزله ليجد رسالة منها تسأله إن وجد شيئًا، فيرد أنه عاد بالشيء القليل والذي لا يعجبه في الأساس، لكنه اشتراه خشية أن لا يجد غيره لفترة طويلة، لتُخبره أنها بعد هذا البحث، اكتشفت أن هناك عدة محلات تبيع الأسنان في مكان قريب من سكنهما في حي شرق، أخذ منها العنوان، ليذهب لاحقًا ويجدها مُحِقَّة، فهي دائمًا مُحِقَّة.

●●●

كانا يعملان أمام بعضهما في تلك العيادة التي كان ينتظر موعدها الأسبوعي ليجلس مقابلها، لم يكن بمقدوره فعل أي شيء غير اختلاس بعض النظرات لعينيها، ولم يكن حتى يحادثها في أي شيء كما يفعل الجميع مع بعضهم البعض، فهو لا يتحدث كثيرًا في المُجمل وأمامها نادرًا.

قال لوالده أنه يريد أسنان فلا تكفيه التي اشتراها من المحلات التي بجانب كلية الطب ولا المحل الذي دلته عليه هي.

ليعده والده بمحادثة صديق له ويرى ماذا يمكن أن يفعل، فلطالما أراد والده تلبية طلباته، لكنه لا يطلب كثيرا فهو عزيز في طلبه حتى مع والديه، وإذا سأل فيكون السؤال لمرة، فإما أن ينقضي الأمر أو ينساه.

بعدها بأيام، أعطاه والده رقم أحد أقرانه، وأخبره أن يتصل به ليحصل منه على أسنان، فاتصل بصديق والده ليعرض عليه أن يأتي ليخلع الأسنان من على الجثة بنفسه وهو ما لم يكن يتوقعه ولكنه قَبِل التجربة، فهي مثيرة لأول مرة كعادة كل الأمور في أولها.

اتفق مع صديقيه هارون وصالح، صالح الذي لم يكن ليرفض أبدًا أي تجربة جديدة، أو سفر غريب، ذهبوا، وعندما

دخلوا المشرحة ورأوا الجثث شعروا برهبة الموقف ووقفوا يتأملون نهاية الإنسان الذي يسعى ويسعى حتى يقع في براثن الموت، اختفى عامل المشرحة لوهلة ليظهر فجأة كطيف بعد أن أغلق باب المشرحة الكبير، وقام بتجهيز باب جانبي صغير للخروج بعد أن يُنهوا ما جاءوا من أجله. وقفوا أمام الجثة التي جُهزت من أجلهم، تشتم أنوفهم رائحة الموت، ولا تسمع أذنهم إلا صمت الموتى، أعينهم معلقة على هاتيك الرأس والرقبة والمتصل بها جزء غير كامل من الصدر، متسائلين يا تُرى كيف كان شكل هذا الشخص؟ وكيف كانت حياته؟ وكيف انتهى؟ هل كان معروفًا أم مجهولاً ليقع هكذا بين أيديهم؟هل كان يفعل الخير أم فتنته أيدي الشر، ووقع بين أيديهم الآن؟بدءوا في محاولة الخلع، كانوا يتوقفون أمام أعصاب يسمعون عنها ويدرسوها، ولم يتاح لهم رؤيتها على الطبيعة من قبل وخاصة تلك التي تظهر داخل السِنَّة نظيفة من أي دماء حين كانت تتكسر بعض الأسنان منهم عند الخلع، كان منظرها وإبداع الخالق فيها يُشعرهم بالنشوة ويقفون أمامها بنظرة تأمل وإعجاب، فكما ينظر الرسام للوحته بإعجاب، وينظر المهندس لبنائه بزهو، ينظر طبيب الأسنان لكل ما يتعلق به بالذهول والإعجاب، نجحوا في خلع عدد لا بأس به، وعادوا إلى الجامعة لاقتسام الغنيمة، ثم ذهب كلٌّ منهم لواديه، وعاد هو إلى بيته.

كان يحتفظ بالأسنان حتى إذا ما نفد ما تملكه وسألته يعطيها من مخزونه، أو ربما هي تَدَّعِي ذلك حتى تُتيح له الطريق لتعميق علاقته، فهي تعرف أنه يبحث عن الضوء الأخضر.

وعندما تقابلا في الموعد المنتظر، كان جالسًا بجانب صديقه خاطر، وهي جالسة بجانب صديقتها رانسي في مقابلهم، وهما شاهدان على العلاقة إلى حد ما، يُبديان آراءهما أحيانًا، ولكن الغلبة الكبرى في اتخاذ الأمور المنحى الذي أخذته ها دماغها، ودماغه.

تحين فرصة لكي ينفرد بها، وعندما انشغل صديقه وصديقتها عنهما قليلاً، قام فجأة ليميل ناحيتها ويضع كيس شفاف صغير به سِنَّتَان ويقول هذا طلبك، وزاد عليه كيسًا آخرًا به الأجزاء العلوية من السِنَّة والتي يسميها العامة طربوش ويُطلق عليها بين أطباء الأسنان كراون، متصل بها العصب فقط، بشكل جميل يدل على إبداع الخالق، وذكر لها قصته، كان لديها إصرار على دفع الثمن، فأبى، لكنها وضعت المبلغ أمامه على الطاولة.

كان يعرف أنها عنيدة، فلم يُطل النقاش، انتظر اقتراب نهاية العيادة، الوقت الذي يتحرك فيه الجميع في أرجائها بشكل متطرد، وهي كانت تُنهي شيئًا بعيدًا عن الطاولة، فرد الثمن ووضعه على طاولتها، وغادر في وقت كان وحده المتواجد، كان على يقين أنها لن تُمرر الموضوع بسهولة.

وفي نهاية اليوم، وهو يسير أمام كُليته في اتجاه البوابة، وقعت عيناه على عينيها لثوانٍ وهي تسير بجانب صديقتيها الدائمتين رانسي وريم، عكس اتجاهه ولكن داخل الكلية في الدور الأرضي والذي لا يفصله عائق عن خارج الكلية، فأدرك حينها يقينًا أنها تنوي رد المبلغ بأي شكل. كان ذلك جليًّا فيهما.

●●●

لم يدم هذا الانتصار المؤقت كثيرًا، ففي اليوم التالي وفي وقت لم يكن على باله غير أن يأخذ أوراق مهمة من إحدى زميلاته بعد انتهائهم من أحد المعامل وهو يهم بالخروج، إذ يجد زملاءه في وجهه يخبرونه أنهم بصدد تجهيز شكوى لتقديمها للعميد، وأن عليه أن يكون معهم، فعاد بأدراجه لداخل المعمل معهم، ليقوموا بإعداد ورقة بذلك، وبعد انتهائهم، وفي لحظة خروجهم جميعًا وكان هو في منتصفهم، إذ يجدها أمامه تمسك بكيس الأسنان في يد والثمن في اليد الأخرى، تخيره بين ذاك أو تلك. كان وحيدًا أمامها، ففي لمح البصر لم يكن هناك من أحد بجانبه، وهوا يخبرها أن ذلك غير مقبول:» دي ولا حاجة « وأنه مع أصدقائه لا يأخذون من بعض أي أموال عندما يتعلق الأمر بالأسنان، ترفض وتقول أنها على العكس مع زميلاتها، وهم يرددون نفس الكلام بجانبها، في هذا اليوم كان قد نسي أن يُحضر معه البالطو الخاص به من المنزل واستعار بالطو من أحد أصدقائه ولكنه كان واسعًا،

لـم يكـن يهمـه ذلـك، فقـط كان يُريـد قضـاء اليـوم به.ويـالا الحـظ كانـت جيوبـه مفتوحـة تلقائيًّـا كأنمـا تقـول لهـا اقتربـي، فتحـاول هـي مـدَّ يدهـا لوضـع المبلـغ في إحـدى الجيـوب المفتوحـة علـى مصراعيهـا، وهـو يتزحـزح للـوراء مبتعـدًا، وهـي تقتـرب، ويكمـل رجوعـه للـوراء وهـي تقتـرب منـه حتـى اصطـدم بعمـود خلفـه فلـم يعـد بإمكانـه الرجـوع أكثـر مـن ذلـك، فوصلـت لمبتغاهـا مـع اقترابهـا لتضـع المبلـغ في الجيـب.

يـا لهـا مـن لحظـات لا تقـدر بثمـن مـن السـعادة، ضيعهـا سـوء الفهـم اللاحـق والعنـاد والمكابـرة، فهـم أكثـر الأسـباب التـي تدمـر علاقـات الحـب الحقيقيـة.

عندمـا يتذكـر تلـك اللحظـات، يـذوب عقلـه وينفطـر فـؤاده، ينـدم علـى كل فعـل خاطـئ منـه تجاههـا، كل كلمـة ليسـت في محلهـا، فهـو يعتـرف بسـرعة غضبـه وتهـوره.

لكـن لمـاذا عنـد الغضـب لا يذكـر المـخ لنـا إلا المواقـف التـي تزيـد هـذا الغضـب وتدعمـه؟ ثـم عندمـا نهـدأ، نتذكـر المواقـف التـي تشـدنا للآخـر، وتجعلنـا نغفـر لـه، لكـن أحيانًـا لا يفيـد هـذا التذكـر.

فقـد تكـون اقترفـت كلماتنـا مـا يكـون إصلاحـه ثانيـةً دربًـا مـن دروب الخيـال.

●●●

الفصل السادس

فصل جديد من الغرائب التي لازمته تلك الفترة.

استيقظ صباحًا كعادته، أعد الساندويتشين الذين غالبًا ما يفطر بهما مع كوب الشاي بالنعناع، وجلس أمام شاشة اللاب توب؛ ليبدأ يومه بتصفح آخر مستجدات الفيس بوك، وجد طلب صداقة من فتاة باسم «هند»ورسالة تُخبره فيها أنها تتبع طب الأسنان لكن في جامعة غير جامعته، تطلب منه بعض المراجعات لدكاترة يُحاضرون في الجامعتين، أخبرها أنه سينظر في ملفاته، ولو وجد شيئًا فلن يتأخر عنها، كثيرًا ما كانت تأتيه تلك الرسائل، وكلها تكون لمرة وينتهي الأمر، لكن مع هند اختلف الأمر.

●●●

كان يتبادل هو وزينة الغزل الثقيل الخفي ببوستات على الفيس وصور يتم مشاركتها، رغم أنهما ليسوا أصدقاء على ذلك الموقع، فبحق هي أغرب علاقة حب، هي عميقة بينهما وتبدو لاشيء أمام الجميع.

تأخذ التريقة مجالاً بينهما، ومرة الشروط الخفيفة الخفية، حتى جاء يوم وضع فيه صورة مكتوب فيها أنه بدون أي أسباب

لا يريد الحديث مع أي شخص، لا يذكر الآن ما الذي دفعه إلى قول ذلك، فبحق الإله لماذا يقول هذا الكلام!

ففي خضم حالة الهيام التي تلازم بدايات الحب لا نعرف ما الذي يوجهنا في كلامنا وأفعالنا وهذا أخطر ما في الأمر،تتداخل ردود أفعالنا وتذهب للوجهات الخاطئة، فهو تتقاذفه الأمواج، يتلعثم بكلمات غير مفهومة كالذي يُنازع الغرق، وهي على الجزيرة أمامه وحيدة لا تعرف ماذا يمكنها أن تفعل

وكانت هي سريعة دائما في رد فعلها واستجاباتها،

فارتجلت حلاً...

كان ذلك قُبيل آخر امتحان بثلاثة أيام، وصادف أن يكون هذا الامتحان لنفس المادة التي اعترف لها قبلها أول مرة، لا يدري ما سر هذه المادة، فهي تعتبر من المواد المؤثرة في حياته، والتي يكرهها كثيرًا لكثرة المتغيرات فيها وتعقد خطواتها وحاجة تطبيقاتها دائمًا لإدخال التعديلات، التركيبات المتحركة، يا لها من مادة.

قال ما قال ونوى عدم الرجوع إلى بيته بعد أن أنهى امتحانه الذي يسبق الأخير مباشرة، توجه إلى بيت جده وجدته في المنطقة الشرقية، بالتحديد(بيس) تلك المدينة العريقة في التاريخ وعلى الورق لكن واقعها يغاير ذلك كثيرًا الآن.

فهي من أقدم مدن مصر، كانت تعتبر في العصور الأولى لمصر كمدخل ومعبر للوافدين، سُميت على اسم الملكة بيسه، التي كانت تحكم مصر في الفترة التي استقبلت فيها المدينة عمرو ابن العاص في أول زيارة له لمصر قبل الفتح، وتعني القصر الجميل،

كانت مهمة له كأهميتها للدولة العثمانية، كان ينزل بها كلما ضاقت به الدنيا كما نزل بها النبي يعقوب حيث قدم إلى مصر لمقابلة ابنه يوسف، يعيد بناء نفسه بها كما أعاد نابليون بناء استحكامات المدينة العسكرية عام ١٧٩٨م.

كانت بمثابة منتجع بالنسبة له وله هو فقط.

ولكن قبل التوجه إليها طلب منه والده التوجه إلى قريته ومنشأ عائلته والتي بقربها لزيارة خاله.

سار بسيارته بجانب ترعة الإسماعيلية حتى وصل إلى مدخل قريته، وعندما أنهى الزيارة، قرر الرجوع من طريق أقرب لكنه بلغة المصريين، طريق مقطوع، ولم يكن قد سار فيه من قبل، ولكنه سمع به فقط.

كان يسير شبه وحيد على الطريق وسط الحقول في الظلام الدامس، حتى جاء تقاطع فلم يدري أي اتجاه يسلك، وحينها وجد شخص يقف واضعًا شنطته على الأرض أمامه، اقترب منه،

أنـزل زجـاج السـيارة، وسـأل الرجـل عـن الاتجـاه الـذي يتوجـب عليـه أن يسـلكه، فأرشـده، وفي خضـم كلامـه وجـد في عينيـه وملامـح وجهـه طلبًـا خفيًّـا بالركـوب معـه، فقـد أصبـح خبيـرًا في لغـة العيـون منـذ فتـرة، فعـرض عليـه إن كانـت وجهتـه في ذات الاتجـاه أن يركـب معـه،رأى في عينيـه فرحـة لـم يرهـا مـن قبـل، تمنَّـى حينهـا أن تحيطـه هـو وزينـة تلـك الفرحـة، وأن يراهـا في عينيهـا وتراهـا في عينـه.

حكـى لـه الرجـل إلـى أي درجـة صعبـة هـي المواصـلات في هـذا الطريـق وخصوصًـا ليـلاً، وأنـه علـى حالـه منتظـرًا لمـدة سـاعة، حَـدَّث موسـى نفسـه عـن تدابيـر القـدر التـي جـاءت بـه لهـذا الاتجـاه ليُقـلَّ هـذا الرجـل.

وصـل لبيـت جـده وبعـد السـلام والعتـاب علـى تأخـر الزيـارة، نـام ليسـتيقظ في الخامسـة صباحًـا، وفتـح حسـابه علـى الفيـس بـوك وهـو مـازال ممـددًا في سـريره وذهـب للـsearch ليجـد اسـمها كالعـادة مسـجلاً، فيضغـط عليـه ويسـتعرض آخـر مسـتجداتها، فوجـد بوسـت تُنهـي فيـه علاقتهمـا بأسـف منهـا ولأسـباب تُرجعهـا لهـا أكثـر ممـا تُرجعهـا لـه، وبمجـرد أن عمـل تحديـث للصفحـة كان البوسـت قـد اختفـى، فقـد رجعـت عـن كلامهـا علـى مـا يبـدو لكنـه آثـر أن يـرد لاحقًـا بمـا يُلبـي رغبتهـا، فهـو لا يُعـارض كثيـرًا رغبـة أحدهـم في المغـادرة مـع تمنياتـه بالبقـاء.

صلَّى الفجر وأكمل نومه، وعندما استيقظ عند الظهيرة أرسل لها برسالة يُكمل فيها ما بدأته.

لينتهي بهما الأمر بتوديع بعضهما بشياكة وأدب، فهذا ما تعاهدا عليه مع بعضهما البعض.

●●●

قضى اليوم يحاول أن يكون بخير، يحاول السيطرة على عقله؛ لكي يركز معه في ما يقرأ من ورق المادة بلسانه.

نام ليلتها واستيقظ بعد كابوس مرعب، وُرعب طبيب الأسنان يختلف عن بقية البشر،

رأى أنه سقط من أسنانه إحدى الأسنان الأمامية، وهذا بمثابة كارثة لطبيب الأسنان، ليظل طوال الحلم يسير في الشوارع باحثًا عن عيادة تفتح أبوابها حتى يعيد السِنَّة إلى مكانها، يجري لاهثًا وهو ممسكًا السِنَّة في يده، فبعد ساعة من سقوطها لن يتسنى إعادتها مرة أخرى.

وجد إحدى العيادات ولكن الطبيب يخبره أنه لا يمكن إعادتها، فيصرخ فيه: « لا، أنا أيضًا طبيب وأعرف أنه يمكن إعادتها»

استيقظ مفزوعًا فهو حقا فقد ما يَعز عليه.

تصفح حسابها، فالمراقبة لفترة دائمًا ما تأخذ محلها بعد الفراق، وهذا مما ما باليد حيلة تجاهه.

وجد فيه ما تُعبر به عن مزاجها السيئ، ودائمًا كانت صريحة في التعبير عن مشاعرها، فما أخفته من وجهها يكشفه عنها الفيسبوك.

حكى لها ما حدث بينه وبين الرجل الذي أقلَّه في الطريق المقطوع، وعن الفرحة التي رآها في عينيه وعن تمنياته.

وختم بأنه ربما هما يُعجبان ببعضهما البعض، ولكن لم يتأكدا حتى الآن إذا كان هذا حب أم لا،واختار ((Friends of friends وضغط (Post)

●●●

ظل طوال يومي إقامته يُقنع جدته أنه مش جوعان، مش بردان مع حلول فصل الشتاء، وأنه لم يُنهي امتحاناته بعد، وسيعود للقاهرة يوم الخميس من أجل آخر مادة.

انتهى من آخر امتحان، ولم يعد لبيته ولكنه ذهب مباشرة إلى أصدقاء طفولته الثلاثة، ليقضي اليوم والليلة معهم، يتناساها أو يتظاهر أمام نفسه أنه نسيها.

ظل بعدها لأيام مشغولاً بإنهاء بعض أموره قبل الذهاب لشرم الشيخ، تلك المدينة الجميلة التي طالما سمع عنها لكنه لم يحالفه الحظ بأن يزورها من قبل، ذهب بنية تغيير مزاجه والجو المحيط به، علَّه يُشفى منها ومن داء الحب، الحب الذي هوا الداء والدواء.

●●●

حطت قدماه في شرم الشيخ، حيث الطبيعة الخلابة والجو الرائع، يُعجبه منظر الجبال الأخآذ، ويُبهره صفاء مائها، إنها حقًّا جنة، حاملاً معه ذكراها، ورواية كان قد لمحها في وسط كتبها من صورة كانت تضعها على الفيس بوك تُنذر باستعدادها لتغيير محل سكنها تدعى Brida، لقد تمكنت منه لدرجة أنه يقرأ ما تقرأ، وكانت تلك أول مرة يقرأ رواية غير مُترجمة.

قضى أول اليوم يستمع لأغاني أم كلثوم ثم في آخر الليل كالعادة، يُنذر نفسه بأنه يجب عليها أن تتوقف لكن هيهات، فهي تعاود غير آبهة بتحذيراته.

حاول الحفاظ على عهده مع نفسه بعدم استخدام الفيس بوك، ومن صباح اليوم الثاني قضى معظم النهار في حمام السباحة يُرخي عضلات جسده ويغسل دماغه من الأفكار، ثم الغداء مع

والديه والذي كان يحوي ما لذ وطاب، واستكمل اليوم تمشية مع والديه وتنقلاً من قطعة لأخرى على الشاطئ.

في الحادية عشرة وهو يهم بالخروج من الفندق مع أخوه، ذاهبين إلى منطقة خليج نعمة، إذ تخطر بباله خاطرة أن يرسل لها رسالة يطمئن عليها، فهو وإن كان قد أغلق الفيس إلا أنه ترك الماسنجر فاعلاً، ويُقسم أمام نفسه أن في نيته الاطمئنان فقط.

وبمجرد أن أرسل: إزيك عاملة إيه؟

جاء الرد بعدها بقليل: «الحمد لله بخير»

ثم صمتا، وكان حينها يسير مع أخوه في طريق طويل أمام الفندق حتى أماكن التاكسي، ليستقبل منها سؤالاً يقلب كل الموازين:-

زينة: So I don't think you are just saying hi.

توقف فجأة عن السير، يُصارع الزمن ويُصارع عقله حتى لا يُخطئ هذه المرة، هل يُكابر ويخبرها ويقسم لها أن قصده الاطمئنان عليها فقط، وهو الذي نادرًا ما يطمئن على من يعرف، أم يُسايرها في سؤالها عل الأمور تتحسن لدرجة لا يتخيلها.

وفي ظل بحثه عن رد، وجدها تكمل:-

let me handle it this time, I have never expected any admire from anyone as you done. That's why I was so confused when you talked with me in the first time & that's why I made some mistakes. I asked my friends & they told me it's okay to be confused In the beginning.

●●●

موسى، موسى، ينادي عليه أخاه، وهو لا يسمعه، يسير بجانبه ولا يراه، وبعد عدة نداءات يقول له اسكت خالص دلوقتي وقَعَّدني في أي حتة، قَعَّدني،،،،،،،،

يسأله أخاه: ماذا بك؟ ليردف، مفيش حاجة، قعدني أنت بس، ويُكمل أخاه: طب هنروح خليج نعمة إزاي، وإحنا في الشارع المقطوع اللي إحنا فيه ده؟ ليُجيبه:» بعد قليل سنكمل طريقنا إلى نهاية الشارع ونأخذ تاكسي، أكيد هنلاقي، أصلاً هما متلقحين ومش لاقيين شغل»

ونظر يمينه ليجد مدرج الفاكهاني، الذي يضع عليه أنواع الفاكهة نزولاً وكان المحل مُغلقًا والمدرج فارغًا، فجلس على أقل درجة فيه وعاود النظر إلى شاشته، والتركيز معها، ليجدها تقول:-

” I don’t find your long silence is a strange thing”

ولا يخلو كلامها من المزاح،

زينة: أنت نمت ولا إيه؟

تحركت أصابعه لتقول بأنه لا يريد أن يكون إصراره هو المؤثر في كلامها، والحقيقة أنه يجب أن يكون، ترد بأنها في البداية لم تكن تشعر بشيء تجاهه لا بالإيجاب ولا بالسلب، لكنها الآن تشعر بشيء تجاهه، ليتوقف الزمن هنا، حتى عينيه قامت بتصوير تلك اللقطة عشرات المرات، تعيد إدخالها إلى معالجات عقله لكنه يدفعها للتأكد قبل التفسير فهو يؤمن بزواج الحب، زواج المنطق لا يناسبه، يجب أن يكون حب قوي بالنسبة له، هل من الممكن أن تنتهي محادثة بدأت ب(هاي) إلى (أشعر بشيء تجاهك الآن).

كان قلبه يرقص من الفرحة، قليلة هي اللحظات التي نفرح فيها بصدق ومن أعماق نفوسنا، تُثار فيها نفوسنا بالرغم من الظلام الدامس الذي يُحيط بها من الخارج.

●●●

- يلا يا موسى، هو أنت قاعد هنا ليه ؟ ليستجيب لأخيه: « يلا معاك أهو» يكملان السير، حتى يصلا لموقف التاكسي، يختاران واحدًا، أبلغاه بالوجهة، واتفقا على الأجرة، ركبا، وكان

بوده أن يحفظ الطريق لكن عيناه كانت معلقة بالمحادثة التي لم تنتهي بعد.

من أول مرة حادثها على الماسنجر لم يشعر قط بالستار الذي تفرضه على نفسها، فكأن الفيس يكشف عنَّا غطاءنا الذي نختفي وراءه من أعين الناس، فقد أصبح الفيس على الأرجح انعكاسًا حقيقيًّا لما بداخل الإنسان رغم كونه لا يغدو أكثر من موقع تواصل اجتماعي، ولكنه يُبرز جزءًا من حقيقتنا التي ننجح في إخفائها عن الآخرين في أرض الواقع.

●●●

أكملا محادثتهما وهو في التاكسي، تذكر شيئًا عن قصة قديمة كانت هي قد قامت بتأليفها ونشرها على بروفايلها، سألها عليها، وماذا كانت ترمي من ورائها، فاستغربت هي، يبدو أنها قد نسيتها نهائيًّا، وقد أنكر هذا النسيان عليها في حينها، لكنه لاحقًا عندما أبحر في بروفايله ليرى ماذا كانت آراؤه وأفكاره قديمًا، تفاجأ بالكثير من الأشياء التي لا يتذكرها، أشياء استغرب وجودها، وكأنه لم يكتبها قط، وجد كلامًا وصورًا وآراءً مازال بداخله اقتناع بصلاحيتها، وتنبآت عن نفسه صدقت، وكلام وصور انتهت صلاحيتها فحان وقت الإزالة، وجد نفسه أمام شخص آخر، وهذا طبيعي في اعتقاده، لأننا كل يوم نتغير ولا نعود

كما كنا مهما حاولنا، ففي الحاضر كثيرًا ما نتعجب من ردود أفعالنا الماضية.

كانت من حين لحين، تَذكر أنها لم تعتد الحديث لأحد غريب، وينبغي أن لا يُكثرا من الحديث الآن، كان يتغاضى عن ذلك، كان يريد هذه المرة أن يتحدثا لأطول فترة ويعرفان بعضهما أكثر ما يستطيعان؛ لأنه أدرى بنفسه وبصمتها الذي إذا طغى لن يزول بسهولة.

اختُتُم حديثهما بأنها سوف تُخبر والديها عنه، وَدَّعا بعضهما، وانتهت أعظم وأطهر وأنقى محادثة بينهما.

●●●

قضى ليلته هو وأخاه في خليج نعمة، وعادا قُبيل الفجر، نام بدون أن يسمع أم كلثوم وهي تقول « بيني وبينك خطوتين» نام بدون أن يشتاق عندما كان يردد :» شوف بقينا إزاي، أنا فين يا حبيبي وأنت فين، والعمل إيه العمل ما تقولي أعمل إيه،،،،، والأمل أنت الأمل تحرمني منك ليه؟»

نام هانئًا تلك الليلة وهو ينظر للقمر من شباك غرفته في تلك الليلة الصافية، يقول له ها قد وصلت لك بدون أن أبرح الأرض، يا الله كم أحب شرم الشيخ.

●●●

استيقظ باكرًا فلم يكن ينام كثيرًا في تلك الأرض الساحرة بالإضافة إلى الدافع الأقوى للحياة والمحرك الأساسي للحياة- الحب – الذي ما أن نتلقى دُفعة منه سواء من صديق أو حبيب أو أفراد العائلة حتى ننطلق للأمام لا نخشى شيئًا، خرج مع والدته لتناول الإفطار، وبعدها جلسا يتسامران أمام حمام السباحة في الساحة الداخلية للفندق، وكانت الروسيات يقمن بتمارين الصباح، وهنَّ يعملن في الفندق؛ لأن ذلك الفندق كانت إدارته كلها روسية، كُنَّ يدعون الناس للمشاركة وكان عددهم قليل، وشاهدتهما إحداهن فأتت باتجاههم لتتحدث إلى أمه وهو يبتسم.

تسأله أمه: أنت بتضحك على إيه وهي عايزة إيه؟

موسى: بتقولك قومي اعملي تمارين الصباح معاهم.

أمه: هههههه، قولها تمشي.

يتوجه بالكلام للروسية، لتتركهم وتغادر ثم تعود بعد قليل وفي يدها ورقة استبيان، تطلب منه أن يملأها وتأخذ رأيه في الإقامة، ابتسم وقال لها :» اقعدي، أنتِ عايزة تطلعي مننا بأي مصلحة بما إننا الوحيدون اللي قاعدين جنبكم بدري كده» وسط نظرات استغراب من الروسية لتلك الكلمات المبهمة بالنسبة لها.

مـلأ الورقـة وأعطاهـا إياهـا، وأتبعهـا بإعلامهـا أن كل حاجـة حلـوة معـادا النـت في الشـاليهات ضعيـف، فنظـرت لـه الروسـية بدهـاء، وردت عليـه: وأنـت عايـز النـت ليـه؟ فيسـبوك! ضحـك مـن طريقـة هـز رأسـها وهـي تسـتفهم منـه وكأنهـا غلبتـه، وقـال لهـا بأنـه قـد أغلقـه مـن سـاعة مـا وصـل، وكان محقًّـا فهـو لـم يفتحـه إلا مرتـين، مـرة تابعهـا وكتـب لأخيـه تهنئـة لعيـد ميـلاده، ومـرة غيَّـر صـورة بروفايلـه. أوضـح لهـا أن السـبب حاجـة والـده لاسـتعراض بعـض الإيميـلات، تفهمـت ذلـك وذهبـت، ليُكمـل تسـامره مـع والدتـه، حتـى وصلتـه رسـالة منهـا:

زينـة: السـلام عليكم،أنـا اتكلمـت مـع أهلـي وهمـا منتظرينـك أنـت وأهلـك، في الأجـازة إن شـاء الله عشـان يتعرفـوا عليكـم.

موسى: وعليكم السلام، طيب تمام، إن شاء الله خير.

لـم يطيـلا الحديـث تلـك المـرة، يريـد تجميـد الأوضـاع هكـذا حتـى جلوسـه أمـام والديهـا، ينـوي الحديـث عندمـا يكـون الغـزل في عينيهـا مباحًـا وتُصـارح مقلتـاه مقلتيهـا

يُحافـظ عليهـا للحـين الـذي تصبـح فيـه مِلكـه رسـميًّا ويعطيهـا زمـام أمـره.

●●●

خاطر: قولي بقى وصلت لإيه من طقطق لسلامو

عليكم.

موسى: بابتسامة ماكرة، يابني دي أسرار وممكن

تتنظر الحاجات دي.

خاطر: لا، الكلام ده ميتقاليش أنت راجع من شرم

مختلف عن ما رُحت خالص.

موسى: يابني...(مع صوت رسالة على هاتفه)

دقيقة دقيقة.

نظر موسى في هاتفه، فكانت رسالة منها ترد على رسالة صباحية منه، كانت تلك الرسالة بداية اللخبطة منه مرة أخرى، كثيرة هي هرتلته، كان قد قرأ على صفحتها على ال ask رسائل موجهة إليها من مجهول، وكان يعلم أنها مزاح من إحدى صديقاتها التي اعتادت على كتابة مثل تلك الرسائل وكانت هي ترد عليها أحيانًا، ولكنه كتب لها ليخبرها أنه ليس من يتغزل لها بتلك الطريقة.

وهي لن تترك الأمور تعبر هكذا دون تعليق، ردت عليه بحزم: «طبعًا ما أنا عارفة، ما أنا أكيد مش هرد على كلام زي ده إلا لو متأكدة إنه من واحدة صاحبتي»

obeikan.com

لا يذكر كيف انتهت المحادثة، لكنه ظل يعاتب نفسه على تلك الرسالة؛ فلم يكن لها من داعٍ.

هو الذي لا يزن الكلام قبل نطقه أو إرساله دائمًا.

خاطر: إيه يابني في إيه؟

موسى: مفيش حاجة، يلا نكمل تمشية.

أكملا تمشيةً، بدون هدف ويتغنى زميله بجانبه بكلمات فؤاد حداد ناظرًا لموسى بابتسامة:

(آه وآه ويا فرحة قلبي

كنت طير وصبحت مراكبي

بجناحين وحملت حبايبي

يا هنايا في ريح النيل

وابتسام الفجر دليل)

موسى: هههههه، يابني ارحمني بقى.

كان هذا اليوم هو المتوقع لظهور النتيجة، وكان يُترقب ظهورها في أي وقت،عادا من التمشية في المدينة الفاضلة ليجلسا عند حامد في القهوة، ويشربا قهوتهما على ألحان الأغاني التي

يُشغلها لهم حامد خصيصًا، ولم يصبر خاطر حتى ظهور النتيجة، آثر السير إثر انتهائه من القهوة، متعجلاً كعادته.

بعد أن قام من المقهى، وبمجرد وصوله البيت، ظهرت النتيجة، فآثر سؤالها عن النتيجة، حتى يُلطف الأجواء بعد ما حدث صباحًا.

واختُتم هذا الربيع حتى بداية الترم الثاني، فياليته آثر الذهاب لوالدها في تلك الأيام، ياليته تعجل الخير؛ فكل تأخيرة كانت تُبعد بينهما، كل تأخيرة لم تكن خيرًا لهما.

●●●

opelkan.com

obeikan.com

الفصل السابع

٢٠١٥

بدأ الترم هادئًا، لمرات عاهد نفسه على عدم الهروب من عينيها عندما يتلاقيان، لكنه لم يستطع، كانا أمام الجميع كأنما لا يعرفان بعضهما البعض نهائيًّا، لم يعتد فتح حديث مع أحد إلا لسبب واضح، وقوي، فعندما تتبارى الكلمة والصمت في رأسه يُفضل الصمت، بدأت القلاقل تحدث من هنا، بدأ الترم بالتخلِّي عن هدوئه ليصبح حافلاً بالشكاوى والنقاشات، بدأ تقارب الطلبة من بعضهم كثيرًا في تلك الأيام، لما فرضته عليهم طبيعة الدراسة، ووجوب المشاركة في علاج الكثير من المرضى،

طوال الأعوام السابقة كان يقوم بمتابعة مهام وشكاوى الدفعة التي توكل إليه منفردًا، دون أن يطلب مساعدة أو مشاركة من أحد، فمن أراد المشاركة أهلاً به، لم يستطع تغيير ذلك القانون كليًّا، لكنه دعاها لمشاركته أحيانًا، مع علمه بحبها لدور الرائدة والقائدة، لكن ما بيده حيلة.

اجتمع في ذهنها هذا الهروب الذي هو بداعي العادة والخجل مع عدم الدعوة، لتفهمهما بشكل خاطئ، لا يدري ما هو بالتحديد، فأرسلت تعاتبه أو ربما تلقي حجرًا في المياه الراكدة، لم تعرف أن

هذا خجل الحب عندما يستولي على الرجال، ولم يعرف هو أن هذه جُرأة الحب التي تستولي على النساء، ولم يعرفا أن الحب يُحب الحركة والتقدم للخطوة التالية مباشرة، فهو كماء البحر إذا ركد لم يعد صالحًا لشيء.

زينة: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هو أنا زعلتك في حاجة أو حصل أي شيء بدون قصد مني، وكمان مدعتنيش في اجتماع تقديم الشكوى، عالله المانع خير- ابتسامة

فيس بوك - أتمنى ميكونش فيه حاجة»

موسى: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

إيه اللي يخليكي تقولي كده، والله ما في أي

حاجة، وخُديها قاعدة عندك أنا لا يمكن

أزعل منك أبدًا، وملكيش أي دعوة بمعالم

وشي في الجامعة»

زينة: «طيب تمام، الحمد لله»

موسى: «تصبحي على خير»

زينة: «وأنت من أهله»

كان للتو عائدًا منهكًا من لعبه الكورة مع زملائه في الجامعة،ظن بأن هذا التفسير كفيل بمعالجة هذا الاعتقاد الخاطئ، والذي تعتقده نصف البشرية فيه ، لحين إيجاده حل لنفسه التي تأبى التطويع.

بدأ حدوث تبادل للأدوار، صار يتجنب تحمل أعباء الدفعة ويتجنب التصدر في مواقفها، وبدأت هي بتولِّي زمام القيادة مكانه، كان فرحًا برؤيتها هكذا ويساند على قدر ضئيل وبدافع من طلبة آخرين.

لكن ظهر منها ما يعكر صفو ذلك كله، ظهرت منها النظرة المتجافية، تُحاربه بسلاحه الذي تحسبه كذلك من بعيد ولكن لم يكن ليفعل ذلك معها في مواقف اقترابه، استشاط غضبًا، واشتعلت نار غيرته التي لم يكن ليشعلها أحد إلا بقدرها هي.

غضب لأنها أشاحت بوجهها عنه عدة مرات منذ ذلك الحين، فأشاح بوجهه عنها أبدًا، نفسه التي لم تكن لتقبل التفاوض على ما يمس كرامتها أبدًا، حتى لو كانت من أغلى الناس عنده، نفسه التي لم تلتفت باتجاهها مرة أخرى إلا في مواقف قليلة بعدها وضعتهم حينها الحياة في تعامل مباشر لابد منه.

عدة مواقف مرَّت سريعًا بينهما، كانت كفيلة لنفسه بإرساء حالة التجنب لتحول دون محاولات قلبه لكسر هذا الجمود، فقد كانت نفسه عصية عن التطويع رُغم دعوة أمه التي تتكرر كثيرًا(ربنا يهديلك نفسك يا ابني).

كان ذلك بداية الصراع القوي بين العقل والقلب، كلٌّ يدعم موقفه بالأدلة الدامغة لإرساء رد فعله وإغلاق الطريق على الآخر.

القلب: دي حبيبتك اللي اتمنيتها، اللي كنت مستعد تقف عند باب بيتها، اللي خافت على كسر قلبك زمان، وصبِرت لحد ما على مشاعرها شاورلتلك فأنت دوبت وحبيتها.

العقل: آه أنت حبيبها، بس يمكن مشاعرها دي كلها سببها ملامح الحزن اللي شافتها في خطوط وشك يوم ما لقيتها، يمكن مجاملة عشان حبيتها، نسيت إنك دقيت كتير على قلبها وكانت عنيدة لحد ما فتحتلك.

القلب: بينا الكثير اللي لا يمكن أنساه، من يوم ما روحي في عينيها لقيتها.

العقل: تفسر بإيه العينين اللي كلهم تجاهل والعبث اللي في ضحكتها، عينان حسيت إنك مش عارفهم، عينان غير اللي أنت حبيتهم.

القلب: سيب الأمور تمشي على طبيعتها، لحد ما نلقى مرسى على ضِفَّة مُقلتها، يمكن اللي عندك ده كله أوهام والأيام تثبتلك صِدق محبتها.

●●●

كانت الأيام تسير بفصول مختلفة تتقلب كمزاجه المتقلب كثيرًا في اليوم الواحد ما بين حب وخوف وفضول، بُعد وتجاهل ونسيان.

لم يستطع أن يغفر لها تلك الإشاحة وهو الذي كان مع تجنبه لعينيها يستمع بإنصات عندما يجمعهما الحديث، لا يرى ولا يسمع شيئًا ممن حوله إلا هي، لم تخنها عيناه وكانتا على بريقهما كأول يوم بهما التقتا.

كان الشيء الوحيد الذي يجمع بينهما تلك الأيام، هي الأحاديث القصيرة على الماسنجر، وتلك المذكرات الجافة التي يتبادلونها، والتي كان يتميز بها صديقه معتمد وصديقتها ريم ، لينجحوا بها في امتحاناتهم التي لم يكن لها من مصدر مذاكرة واضح.

حتى قارب الترم على انتهائه، كان ذلك آخر امتحان عملي له في الكلية لينتظر بعده بداية الامتحانات النظرية، عندما حادثته

والدته قبل خروجه من الجامعة مباشرة لتسأله عن موعد رجوعه للمنزل، ليخبرها أن تبدأ بوضع الغداء كما اعتاد إبلاغها في المرات القليلة التي تُحادثه فيها، ختمت كلامها ب(توصل بالسلامة) لا يدري لماذا شعر حينها أنه لن يصل.

يومها أنهى امتحانه العملي باكرًا، لكنه لم يجد في نفسه هوى للمشي باتجاه سيارته والانطلاق حينها، كان يبحث عن أصدقائه علَّه يجلس معهم يتسامرون ويتأخر في السير، ولكن تلك الفترة كان الجميع مشغولون بإنهاء الحالات المطلوبة منه، فمطلوب من كل طالب عدد حالات في كل تخصص، يسلم ورق يثبت أنه أنهاهم بنجاح قبل موعد معين، فكان الجميع يسارعون الزمن لتسليم ما عليهم، وكان هو قد انتهى من ذلك كله، عندما لم يجد بُدًّا، خرج بعد محادثة أمه مباشرة.

●●●

ظل لأيام قبلها يحلم بكوابيس، ليلتها كان يجلس في شرفة منزله يستمع للأبنودي يقول:-

« والرؤية قصادي اتسعت

بصيت وأحسب نفسي بين خلان

تعالوا شوفوا الدنيا من مكاني

حاشتنا أغراض الحياة عن النظر

بالرغم من نبل الألم والانتظار، اتعلمنا حاجات أقلها الحذر «

يومها استيقظ صباحًا قلقًا بعد أن رأى حِلم أزعجه، قال لنفسه وهل يمكن أن أُخطئ هذا الخطأ الساذج؟

قرر أنه لن يذهب للجامعة، لكنه عدل عن قراره عندما تذكر امتحانه في الثالثة.

نزل بملامح وجه غريبة، بعد سؤال أمه مالك؟ ليردف: مفيش.

●●●

كان يتحرك صوب المنزل في الرابعة، لتنقضي دقائق، وعلى صوت القرآن اصطدم بسيارتين، وسارت سيارته لفترة ليست بالقليلة على عجلتين فقط، فكان يفصله عن الانقلاب بها شعرة، كان القدر مرسومًا بدقة.

تحقق الحلم بكل تفصيلة فيه، وأضحى الكابوس واقعًا. أخطأ هذا الخطأ الساذج الذي استعجب منه في الصباح،تَعلم أشياءً كثيرة أقلها الحذر كما قال الأبنودي.

ظل بعدها ليومين لا يستطيع النوم أو الأكل

obeikan.com

بكي سيارته الشخص الذي لم يبكِ أحدً من لحم ودم في حياته.

كان ينظر لها من شباك منزله ويملأ عينيه الحزن ويملأ الأسى روحه.

اختار القدر أن يُريه وجهه السيئ

واختار هو القوة، أيقن أنه احتاج لشعور الضعف مرة حتى يستعيد قوته مرة أخرى، عزم على التماسك فهذا ما يجيده.

●●●

obeikan.com

الفصل الثامن

شرد ليذهب بعيدًا عندما كان يسير صباحًا باتجاه الجامعة، وكان في قيادته للسيارة كمشيه على قدميه، يحدد الجهة ويسير لكنه لا يستطيع السيطرة على أفكاره فيطلق لها العنان ويطير معها، لطالما كان يمر بأحد معارفه ولا يُلاحظه فيلتقطه من غيابه مع عتاب على شيء لا يقصده، حادثته نفسه ما إذا احتاجت مساعدته في أي وقت كيف سَتَطْلُبه، كيف ستتواصل معه وهما لا يتبادلان أرقام هواتفهما وقليل ما ينظر لرسائل الإنترنت وهو خارج المنزل، تلاشت هذه الأفكار عند وصوله الجامعة عندما ظهرت عربة الفول على شماله، وباصات الجامعة تركن على يمينه بعد نزول الطلبة، تلاشت عند ابتسامه لرؤية أفراد أمن الجامعة وهم يركنون أمام أبواب الجامعة سيارات من يدفع لهم بسخاء.

قضى يومه بعياداته، بمرضاه، بضحك زملائه، ببسماتها التي يراقبها من بعيد، ختامًا بالجزء الأصعب...هروبه من عينيها.

خرج من الجامعة في نهاية اليوم ومعه هشام، وهو من أفراد الاجتماع، الذي لا يسلم من أفعاله إلا القليل، ينطلق لسانه لا يدري ماذا يقول، ولا يشعر بالندم أبدًا، ليوصله في طريقه على غير العادة، بادره بسؤاله...

هشام: هو أنت معاك رقمها؟

موسى: لأ، ليه؟

هشام: يعني افرض احتاجتك في حاجة طارئة!

موسى: «واللّه يابني أنا لسه مفكر في كده النهاردة، بس يعني خلاص كلها كام شهر وأتقدم رسمي، بلاش شُغل العيال ده اللي أول ما يعرف واحدة يعملها فيها كينج كونج، ولو هرشت يقولها اتعورتي ولا تمام يا حبيبتي»

هشام: «هههههه، طيب أنا قولت أسأل بس»

وفي ذات اليوم، أتته رسالة منها لم يرها إلا في الثانية عشرة صباحًا عندما استيقظ من نومه العميق الذي يعقب عودته من الجامعة، كانت تستشيره في أمر الحادث الذي تعرضت له:-

زينة: السلام عليكم، إزيك، يارب تكون بخير؟

أنا العربية بتاعتي اتخبطت وكنت عايزة آخد

رأيك أعمل إيه؟

موسى: لا حول ولا قوة إلا باللّه

خير إيه اللي حصل؟

زينة: مفيش، وأنا مروحة من الجامعة،العربية اللي قدامي وقفت فجأة، وأنا لحقت نفسي لكن اللي ورايا اصطدم بيا.

فتعرف حد ممكن يصلحها، والتكلفة هتكون كام؟

موسى: أكيد، دا أنا خدت خبرة جامدة في الحوار ده، بس ابعتيلي صورة ليها عشان أقدر أعرفلك التكلفة.

زينة: أوك حاضر.

موسى: ومتزعليش قدر الله وما شاء فعل.

زينة: أنا زعلت جدًّا، يلا الحمد لله.

موسى: إن شاء الله متشوفيش حاجة وحشة تاني تصبحي على خير.

زينة: وأنت من أهله.

obeikan.com

في الثامنة صباحًا

استقبل منها الصورة،،،،

زينة: الصورة أهي.

موسى: صباح الخير الأول.

زينة: صباح النور.

موسى: لا دي حاجة بسيطة خالص، دي متزعلش خالص، دا أنا كنت بشيل العربية على الونش وهي جثة هامدة من على الطريق، على الظهر كده تكون الورش فتحت وهعرض الصورعلى السمكري اللي أعرفه وأقولك اللي فيها.

زينة: طيب تمام، معلش تعبتك معايا.

موسى: لا تعب إيه، متقوليش كده.

زينة: شكرًا جدًّا.

موسى: لا شكر على واجب.

زينة: سلام.

موسى: سلام.

استفاق من شروده وعيناه مثبتتان على السيارة المغطاة أسفل شُرفة منزله،لينتبه لرسالة منها تسأله عن الصورة السوداء التي يضعها في صفحته على فيس بوك.

يخبرها بما حدث، فتواسيه كما فعل معها مسبقًا، تُخبره أن يُغير تلك الصورة ويرضى بقضاء الله وقدره؛ فيُطيعها مباشرة، فكلامها عنده كعينيها، سهم نافذ.

●●●

كانت الأيام تسير بأحداث متشابهة وأحاديث متقاربة، بقلب يميل ويشتاق، وعين تتجافى وتبتعد، كان ينام مشتاقًا، ويستيقظ محتارًا، يسير في يومه هاربًا من عينيها في كل رواق.

حدث ذات مساء، أن استيقظ من النوم، وكان كثيرًا أول ما يفتح عينيه، يبحث عن الهاتف في أرجاء سريره، يطمئن أنه في موضع يسمح له بتفادي تقلباته أثناء النوم، يفتح الشبكة التي يغلقها قبل نومه بضبط الهاتف في وضع الطيران؛ لكي يطير مع أحلامه بدون عائق، فكان كثيرًا ما يحلم أنه يستطيع التحليق، يجري لمسافة قليلة ثم يدفع جسده للارتفاع بعد ثني ركبتيه والقفز في الهواء بقوة، ينتقل من منطقة لأخرى كالحمامة،يطير من مناطق يعرفها جيدًا ويحط في جُزر لا توجد فيها إلا المساحات

الخضـراء ويظـل علـى حالـه، حتـى يُصـدق ذلـك قبـل اسـتيقاظه مباشـرة، حينهـا يُلقـي نظـرة علـى الواتـس والماسـنجر، يحـاول قـراءة مـا يكتبـه أصدقـاؤه لبعضهـم البعـض بأعـين شـبه مغلقـة، محـاولاً الاسـتفاقة.

وجـد طلـب صداقـة منهـا، أدرك مـن الوهلـة الأولـى أن هنـاك خطـأ مـا، فقـد كان كتـب لهـا شـيئًا علـى صفحتـه قديمًـا وتأخـرت في الـرد، وكانـا في أحيـانٍ كثيـرة يتحـاوران كلٌّ علـى صفحتـه وعلـى مـرأى مـن المتابعـين الهـواة، فـأراد حينهـا أن يسـتعجل الـرد بـدون كلام فضغـط علـى زر طلـب صداقـة، فيتسـنى لهـا رؤيـة مـا كتبـه علـى صفحتـه، فتـرد،ردت ولكـن بموشـح طويـل، بأنـه لا صداقـة إلا عندمـا يكـون بينهمـا مـا هـو رسـمي، وختمـت كلامهـا بالأدلـة، وهـو لـم يشـرح لهـا حينهـا لِـمَ فعـل ذلـك ولا لاحقًـا، ولكـن تناقشـا نقاشًـا لا طائـل منـه، انتهـى بهـدوء.

تَذكـر ذلـك وهـو يـرى طلـب الصداقـة ذاك منهـا، فأرسـل لهـا مازحًـا:

موسـى: أنـتِ في وعيـك؟ وبجانـب ذلـك ضحـكات الفيـس التـي تحـاول نقـل ابتسـامتنا.

زينة: ليه هو إيه اللي حصل؟

لم يرد موسى، فقد أخذ صورة لطلب الصداقة وأرسلها لها.

زينة: إيه ده، ده أكيد ابن أختي وهو بيلعب في الموبايل عمل كده.

موسى: الواد ده شكله جدع والله،،، اشكريه بالنيابة عني.

زينة: هههههه.

أكملا المحادثة بود كان يفتقده كثيرًا تلك الأيام بينهما.

قارب الترم على انتهائه، معلنًا اقتراب موعد تقدمه لها، تمضي تلك الليالي بصمت مطبق، ورسائل عابرة، وبوستات لا يراها إلا الأصدقاء فقط، كأنما يحادث نفسه لكن بصوت أعلى قليلاً، وبوستات موجهة إليها تدور في فلك تأكيد حبه، ونفي تهمة التجاهل، وكان يلزمه أن يتسلق حصونها ويقتحمها.

حتى كان يوم المادة إياها،دخل هو وأصدقاؤه معسكرًا مغلقًا لمذاكرتها، ظل هو وثلاثة من أصدقائه يأكلون ويشربون وينامون في عيادة والده، وبينما هو مستغرقًا في المذاكرة جاءته رسالة من هند، تقول له أن من يحبها لن تكون من نصيبه، لا يدري ما الدافع وراء كلامها هذا، ولم يُهمه أن يعرف، فقط أغضبه هذا الكلام جدًّا، رد عليها بأنه لا يسمح لأحد بأن يتكلم في هذا الموضوع نهائيًّا، وهي مستمرة في كلامها لتقول:» إن بوستاتك

على الفيس تقول أنكما لستما لبعض»ينهرها مُجَدَّدًا، تعتذر ويُنهي المحادثة معها، يُلغي صداقتها، ويؤكد ذلك ببلوك.

وبعد إرهاق المذاكرة وعصبيته من تلك المحادثة آثر النوم ليرتاح قليلاً، حتى استيقظ بعد الثانية عشرة بقليل ليجد رسالة على الواتس تُهنئه بعيد مولده الذي لم يحتفل به أبدًا بل ينساه دائمًا، كانت المرسلة هي رانيا، فتاة الدرس، التي لم تكن لتنسى تهنئته أبدًا فدائمًا تكون أول المُهنئين، يحتفظ لها بذلك، يُقدرها كثيرًا، ولو طلبته في أمر يسارع لتحقيقه لها، لكنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك. فتح حسابه على الفيس بوك، ليُفاجأ بالتهاني وبوستات عيد الميلاد المعتادة، ليضحك من نسيانه، حتى أنه ينسى نفسه، قرر هو وزملاؤه الاحتفال ليلاً؛ ففي ليالي المذاكرة المُنهكة دائمًا ما نبحث عن ما يُفرفش خلايا أجسادنا ويدفعها للاستمرار، نزل هو وهارون لشراء بعض الكيك والحلوى، ليحتفلوا وليأكلوا، وليكملوا مذاكرة حتى الصباح.

ثم ينزلون تباعًا على امتحانهم، آملين أن تُسفر مذاكرتهم واجتماعهم عن حل يُرضي ودرجة تُشبع...

●●●

افتقد كثيرًا نظرات ما قبل اللقاء الأول، افتقد كثيرًا الأعين الضاحكة عن اللقاء، أدخله ذلك في حيرة.

تسلل الشك إلى نفسه، هل لم تتعدَ القصة لديها مرحلة الفرصة، هل عندما فَتَّحَت بعد عَمًى الإعجاب في الأيام الأولى، لم تُرسخ اختيارها مجدَّدًا كما فعل هو، هل هي المناقشات الكثيرة، والأخطاء الكلامية، التي زحزحت مرسى العلاقة قليلاً وكان يكفي السقوط في بحر العلاقة من البداية دون أدنى تردد،لم يَجد بُدًّا من الاختبار تلو الاختبار، فهو لا يريد العلاقات السطحية، التي تهزها أول رياح عابرة،يُريد الجذور التي تضرب في الأعماق، لا يُحبذ المعرفة السطحية فهو إما يعرف كل شيء عنها أو لا يعرف شيئًا، يُحدثها دائمًا أو لا يحدثها أبدًا، يرى بريق عينيها كبريق عينيه لرؤيتها حتى آخر العُمر، أو لا يراها أبدًا،يريد القواعد السليمة حتى ينجح البناء، لا يريد الوقوف على أرضية رخوة.

يُنشد التي يقولون عنها، وراء كل عظيم امرأة

ويُنشد أن يصبحا معًا عظماء.

●●●

بدأت تلوح في الأفق أجازة الصيف التي اتفقا على أن يذهب فيها لخطبتها مع أسرته، لم يكن قد أبلغ أسرته عنها بشكل صريح بعد، هم لن يمانعوا، فقط عليه هو أن يتحدث.

آثر أن يُخبر أباه منفردًا أولاً ثم سينتشر الخبر في البيت

كالنار في الهشيم، كانت خطوة سهلة وكلمات بسيطة لكنها ثقيلة على لسانه لخجله من طلب كهذا، والأهم والأكثر تعطيلاً عدم حُبه مطلقًا لطلب شيء من الآخرين حتى والديه.

اعتاد والده على الاستيقاظ قُبيل الفجر ليلحق بركب قيام الليل، ثم يُصلي الفجر ويجلس في الشرفة للقراءة أو تجهيز محاضراته وأبحاثه،قرر أن هذا أنسب وقت ليُفاتح والده، ظل قرابة الأسبوع يستيقظ باكرًا ويشارك والده الجلوس في الشرفة والحديث والسمر لكنه ما أن يصل للنقطة التي يريدها ينعقد لسانه، وآخر ما يمل من نفسه وصلابتها، يُغادر مجلس والده.

حتى جاء اليوم الذي كان يقضيه مع والده في بلدتهم لزيارة بعض أقاربهم، وبينما هما عائدان في الطريق، إذ يصل بهم الحديث إلى أن قال والده، لقد تحدثت مع أحد أقاربنا لكي يتولى شئون تجهيز شقتك، ليُحدث نفسه لأنطق الآن وإلا سأضطر للسكوت طويلاً، فلن تأتي فرصة تقترب من فك عقدة لساني مثل هذه، ليسارع بإيماءة موافقة، ويُتبعها بقوله: «بابا صحيح، في واحدة زميلتي في الكلية عايز أخطبها»

والده: هي كويسة يعني؟

موسى: أيوة.

والده: والدها شغال إيه؟

موسى: مهندس ووالدتها دكتورة.

والده: خلاص يابني على بركة الله.

موسى: إن شاء الله نروح نزورهم في الصيف ونتعرف عليهم.

والده: إن شاء الله.

كان سعيدًا جدًّا ليلتها لأنه نطق أخيرًا، شرع يخبرها بهذا الخبر ولكن على طريقته، لم يكن يدرك حينها وهو يكتب أن الكتابة هوايته من زمان، الهواية التي غَفل عنها في زحام الأيام وأعادته هي إليها، كانت وسيلته في التعبير معها وهو غير مدرك لذلك.

« إنها المرة الأخيرة التي أُبرر فيها أحداث قديمة وعالقة في رأسي، من بين كل ما حدث بيننا، وصولاً حتى شرم الشيخ، التي ظللت بعدها لأيام غير مستوعب لما حدث،حتى إني كتبت ورقة فيها -Simply, I was just saying hi, But it happened - وعلقتها على الدولاب أمامي في الغرفة كعادتي مع الأمور المهمة التي تحدث مفاجأةً وأُذكر نفسي بها، فلم أتوقع أن تصل الأمور لما آلت إليه بهذه السرعة، ظللت متأرجحًا بين فترات من الشك واليقين، بين الإيجاب والسلب، بين الابتسام للمواقف السعيدة،

والحديث مع نفسي بمبررات للمواقف السيئة، كنت أَشُك أحيانًا في مشاعرك، أضع الاختبار تلو الاختبار، كُنت أفشل في نفي مشاعري وتنجحين في إثبات مشاعرك، فشئت أنا أم أبيت، أنتِ الوحيدة التي لا تسري عليها قواعد تعاملي مع الآخرين.

فبعد ده كله وبعد الأكلة إلي عملتيها وأنا مكلتش منها بس سمعت عنها، واللي قلبت الطاولة رأسًا على عقب- مع ابتسامة فيس بوك - أُقر بمشاعري،

وبقولك كده بمناسبة إني قولت لأهلي النهاردة.

فلا مزيد من الاختبارات، ولا مزيد من الشك، ولا مزيد من التردد، ولا سبيل لإخفاء المشاعر مرة أخرى»

أَرْسَلَ واستسلم للنوم بعد يوم شاق، كانت المشاهد في نومه تدور كلها حول توقعات ردها والذي جاء مغايرًا لها، حيث استيقظ في الثانية صباحًا ليتصفح الرد...

زينة: هو أنت أصلاً مكنتش قولت لأهلك من قبل ما

نتكلم، وسبتني أقول لأهلي من الأول؟

وكمان اختبارات إيه هوا الموضوع صعب

للدرجة دي؟

موسى: مش كده خالص، هما كانوا عارفين تلميح،

لكن أنا كنت ببلغهم صراحةً بس دلوقتي،

وبشاركك بكده، أصل الموضوع مختلف

عند الولاد تمامًا، أول ما الواحد مننا بيقول

لأبوه عايز أخطب، بيبصله بخبث كده،

ويقوله والله كبرت، وبعدين يسأله مين دي؟

يعرف الاسم وبعدها على البركة، وميتناقش

كتير، وتاني يوم الصبح تلاقي الخبر اتسرب

لنص العيلة.

ظلا على حديثهما حتى قُرب الفجر، واختتما بالدعاء لبعض وتمني التوفيق، ثم نزل هو للصلاة وهي تدور في رأسه، يخشى على عقله منها، فقد كانت كل خلية تشارك في التفكير بها.

●●●

obeikan.com

الفصل التاسع

انتهى العام،ووجب تحديد وقت العرض، الـ Showtime وكان انتهاء العام الدراسي الرابع مصاحبًا لبداية شهر رمضان، لم يتحادثا لعدة أيام بعد انتهاء العام، حتى كتبت هي على جروب الدفعة تشكر كل من ساند الآخرين، العادة التي كان يفعلها دائمًا، وعندما توقف عنها تولتها هي، تبادل أدوار على كل المستويات، كان من ضمن من اهتم بأمور الدفعة ومشاكلها هو، فلم يمكث طويلاً حتى بعث لها برسالة عبارة عن صورة تحوي، مسدس أو خاتم

إما الزواج وإما...

مع ابتسامة

زينة: ليه بس كده مش خايف السلاح يطول؟

موسى: ما الواحد لازم يجيب من الآخر، عايز

عنوانكم ورقم موبايل والدك.

زينة: إيه ده، الكلام ده حقيقي ولا بجد.

«يبدو أنها لم تكن مستوعبة للأمر كله من الأول

obeikan.com

برمته مثله»

موسى: حقيقي، هو إحنا بنهزر!

زينة: آدي رقم بابا.

موسى: إن شاء الله هحدد معاه موعد في أقرب

وقت، بعد ما أستلم السيارة من ورشة

الإصلاح.

زينة: إن شاء الله.

كان كل شيء مهيأً، ينقصهم فقط اتصال والده بوالدها لزيارتهم وتعارف العائلتين، مرت عدة أيام، وكان يمر بالقرب من الجامعة، وآثر المرور بها لا لشيء إلا لشعوره أنه سيراها، فلم يتعجب عندما وجدها أمامه، كانا يقفان على مسافة ليست بالبعيدة، ولكنهما لم يتفوها بكلمة، يفرض رداؤها سطوته كستار حديدي يمنعه من التقدم، فقد صدق فيهما قول فيروز « ويلي من الأحمقين» حادثها ليلتها، يسأل بتعجب مصطنع،،،

موسى: إيه كنتِ بتعملي إيه في الجامعة؟

زينة: مفيش، ليا درجات وبحاول أخدها.

موسى: آه ما أنا كنت شايفك شرسة النهاردة، عليكِ وعلى الوكيلة.

زينة: آه ما أنا كنت مستنياها النهاردة، تفتكر هاخد حاجة.

موسى: ممكن، أنا مرة كان ليا، وأول ما اتأكدوا، اتعدلت على طول.

متقلقيش إن شاء الله خير.

زينة: إن شاء الله.

●●●

لم يمض يومان على استلامه السيارة، حتى حدث ما أخرجه عن شعوره وعطله مُجَدَّدًا، ذهب في مشوار للجيزة مع هارون من الصباح وكان يشعر كأن سيارات الطريق كلها تتآمر عليه، وكان مما تفاداه تطاير صفيحة من سيارة نصف نقل أمامه، تفاداها بأعجوبة قبل اصطدامها بزجاج سيارته وظن أن هذه نهاية المؤامرة، ولكن هيهات، فقد كانت النية مُبَيَّتَةً من الطبيعة لتعطيله، وربما أحداث ترسمها مشيئة الله بالأقدار. عاد في العاشرة وأخذ أخاه منه السيارة ونام هو، سمع صوت دخول السيارة للجراج

obeikan.com

في الثانية عشرة، فكان ينام ونافذة غرفته المطلة على الجراج مفتوحة، وبعدها بما يقارب نصف الساعة سمع صوت خبط ونداء من عدد من سكان العمارة عليه، قام من سريره مفزوعًا، لم يفهم إلا شيئين، أولهما النافذة المضيئة في العمارة التي تقع خلف عمارتهم، ونداء أخيه من الجراج بأن هناك حجارة سقطت على السيارة وكسرت الزجاج،

لم يتجه صوب السيارة، فقط نزل باتجاه العمارة الثانية، ليجد حارسًا واقفًا. أخبره بلهجة آمره أن يفتح باب العمارة وإلا كسره، ودفعه لإرشاده للشقة في الدور الخامس والتي كانت نافذتها مضاءة وانطفأت بمجرد سقوط الحجارة، يرد الحارس بأنها شقة فاضية، يعيد على مسامعه بأن يتوجه به للشقة، ليطيع الحارس الأمر، صعدا للشقة وفتحها الحارس، تجول في الشقة حتى النافذة التي كانت مضاءة، بحث عن آثار للحجارة، لم يجد شيئًا مع ترديد الحارس بعدم دخول أحد للشقة، فراح فيه صراخًا وانفعالاً وهَمَّ بضربه لولا أن جذبه أحد سكان عمارته الذين لحقوه ولم يكونوا قادرين على السيطرة على انفعاله. لم يُبال بإنكار الحارس، فقط حذره أنه إن لم يأت إليه صاحب الشقة في اليوم التالي، ستكون العواقب وخيمة، وعاد لبيته ونار غضبه متقدة، لا يطيق كلمة من أحد، حتى قابله والده بالنهر

والاستنكار عن صوته العالي والجلبة التي أحدثها في العمارتين لينطق بقوة:» البواب ده لو مجابش صاحب الشقة بكرة أنا هرتكب جناية « ليمتنع والده عن الحديث معه لأيام كعقاب.

●●●

بعث لها بصور السيارة صباحًا، وقد تهشم زجاجها، وأصابت الحجارة بابها الأيسر، وأطراف من غطاء الماتور، اقترب المساء، وأتى الحارس ومعه صاحب الشقة، ليرى ما لحق بالسيارة، قطع على صاحب الشقة الكلام ليخبره بأنه لا مجال للحديث كثيرًا، وأنه لا يعرف غير أنه سقطت حجارة من تلك الشقة وأنه كان يوجد مصباح مضاءٌ وانطفأ سريعًا، وهذه الآثار بادية على السيارة، فرد صاحب الشقة بأنه متحملٌ لتكلفة الإصلاح مع تأكيده أنه لم يدخل أحد الشقة كما يُردد الحارس.

بعث بأخيه لنداء والده، فهو الذي سيَبُتُّ في هذا الأمر، حضر وأخبرهم باستيائه مما حصل، وأنه لا يريد شيئًا سوى أن يتوقف هذا الحارس عن الإنكار.

انتهى الكلام، ولكنه توعد الحارس بأنه لو سقطت ذرة من تلك العمارة فهو المسئول ولا يلومن إلا نفسه.

●●●

قارب رمضان على الانتهاء ومازال موقفه حائرًا، لم يجلس مع والده بعد ليتخذ من أسبوعه الحافل يومًا للاتفاق مع والدها عليه.

كان يجلس مع هارون في منزله بحرية، فكان هو مُمَدَّدًا على الأريكة، وكان هارون يجلس على الكرسي بجانبه حاملاً حاسوبه يردد على مسامعه كلمات وصور وعبارات من على صفحتها، يُغازله ويُمازحه بها، حتى دفعه ذلك لفتح هاتفه والدخول على بروفايلها، وكان لم ينظر إليه من فترة، كانا قد تواعدا فيها على الصمت، ولكن يحق لعاشق مثله أن يخلف وعده بالصمت عن الغزل فيها ومتابعتها، وجد الكثير من الأشياء التي قد لا تعني الكثير في حد ذاتها لكنها حركته للكتابة.

كتب لها عن عشقه وولعه، فقد عَوَّدها على الصراحة، كتب لها أنه لن يتأخر أكثر، ردت عليه بما يروي ظمأه فهي تمسك بمفاتيح روحه في راحتيها، تحادثا وتحادثا، لا يود أن ينتهي الحديث بينهما، أخبرها أن هناك إفطار سنوي في الجامعة يومها، وأنه عرف بالصدفة وسيحضر هو وأصدقاؤه، وسألها إذا كانت ستحضر، فأخبرته أنها لا تعرف شيئًا عن ذلك، لكن إن وجده جيدًا فليحادثها، ستحضر فورًا وأنهيا المحادثة بابتسامات متبادلة على طريقة فيس بوك.

كان هـو وهـارون هامديـن ثـم دبـت فيهمـا روح الدعابـة والمـرح بعـد أن أنهـى هـو محادثتـه، وأكمـل صديقـه الطـين بَلَّـةً بـأن حـادث خاطـر وأخبـره بكلمـات مقتضبـة يملؤهـا الضحـك: «الحـق موسـى» لما يناقشـه خاطـر فقـط سـأل: انتـو فـين؟ ليـرد عليه هـارون: «عندي» فـأردف خاطـر: أنـا جـاي.

وبعـد أن كانـا متشـككين في قيامهمـا للذهـاب للإفطـار أضحـى الذهـاب واجبًـا.

وصـل خاطـر الـذي لا يحضـر كثيـرًا، لكنـه إن حضـر يحضـر في موعـده وسـريعًا، وكان تلك المـرة سـريعًا بزيـادة، اسـتقبلاه بالضحـك، فقـد كان الإعيـاء باديًـا عليـه كأنـه هـو الـذي يتحـرك بالسـيارة جريًـا وليـس الموتـور، كان هـذا اليـوم لا يحكمـه إلا الضحـك، تحركـوا جميعًـا باتجـاه الجامعـة ليحضـرا الإفطـار، بـدون سـابق حجـز ولكـن بخـداع أفـراد الأمـن، الذيـن يحرسـون مـا لا يملكون،ويقضـون حياتهـم في التأمـل والتفتيـش والانتظـار، ويضيـع عمرهـم هبـاءً وهـم وقوفًـا علـى الأعتـاب.

دخلـوا وكانـت ليلـة حافلـة فيهـا كل مـا يَسـد جـوع الصائمـين، فالجامعة يدها سـخية في الاحتفالات، وبعد الأكل جلسـوا يتسـامرون مـع بقيـة طلبـة الدفعـة، ثـم انـزووا ثلاثتهـم تحـت العمود الـذي اعتادوا الجلـوس عنـده، وكان يقـع خلـف الخيمـة المنصوبـة ويحفـه الهـدوء،

تسامروا وتناقشوا في تفاصيل الفرح، وهل سترضى بالغناء أم لا، ليرد عليهم بأنها ستسمح، فهي لن تتشدد لهذه الدرجة مع أنه يُفضل لو لا يوجد فرح من الأساس.

بعث لها بصور الطعام، وتحادثا، ثم ختمت بتمني الهنا، وهو بتمني الهناء.

●●●

في اليوم التالي، كان مستلقيًا على سرير في بيت العائلة، منتظرًا فراغهم من حزم الأمتعة حتى يغادر عمه إلى شقته الجديدة، وبينما هو كذلك إذ ألقى نظرة على بروفايلها، فوجد بوست ينم عن حزن عميق وحسرة، فأرسل يستفسر عن ذلك، سيشاركها حزنها إذا لزم، لو لم يقدر على إنهائه، لم يكن دافعه أنه ظن ولو لثانية أن ذلك بسببه...

- إزيك،أخبارك إيه؟ كنت ببص على بروفايلك فلقيت البوست اللي بيقول إنه شيء مؤلم ومزعلك، إيه اللي مضايقك؟

انتهوا من حزم الأمتعة وتحركوا باتجاه الشقة، وبعد وصولهم، ألحت عليه بنت عمه، الطفلة الصغيرة في أن ينزلا للجلوس في الحديقة القريبة من الشقة لتلعب قليلاً، تلك الفتاة التي كان يحترم ذكاءها، ويحفظ نفسه من طول لسانها، لا تصل بطولها

حتى ركبتيه، لكنها كانت تُباريه في الكلام إذا جلست أمامه، يأخذ رأيها أحيانًا في بعض الأمور ويتعجب من رجاحة عقلها وردودها التي تكون نافعة أحيانًا، نزلا وبينما هو جالس وهي تلعب، إذ تأتيه رسالة من زينة: «دي حاجة مش بسببك خالص، ويستحسن منبصش على بروفايلات بعض» فلم يرغب في الرد بأكثر من: «طيب»

لم يجد رغبة في الحديث والنقاش، شعر بصدمة لأنها بعد كل تلك الفترة لم تفهمه، وكيف تظن أنه أخذ كلام البوست على نفسه، لم تفهم أنه طالما قرر أخذها هي فسيأخذها بفرحها وحزنها، لن يسمح لها بأن تعطيه الفرح وتظل عيناها مكسورة لحزن في داخلها، لم تفهم أنه إذا قُدِّر لهما العيش معًا، فسيكون فرحهما وحزنهما بينهما، سيكون اتفاقهما واختلافهما خاص بهما، سيعتذر المخطئ ويُسامحه شريكه، لن يرى الآخرون منهما غير السعادة، شعر بخيبة الأمل،كانت في تلك اللحظة تتحدث إليه بنت عمه، ولكنه لا يسمع شيئًا مما تقول، ثم قال لها هَيَّا نعد للشقة.

●●●

في المساء تحدث أصدقاؤه عن قضاء الليلة معًا، ثم يصلُّون التهجد ويتسحرون معًا، وقد ذهب معهم ولكنه شارد، لا تتملكه إلا فكرة واحدة.

وصل إلى أصدقائه في شارع شبرا، ركن سيارته، وكان آذان العشاء يدوي مع وصوله، فتحركوا إلى مسجد عصفور، كان يصلي ويدعي «يارب دلني على الأصلح، يارب لا تجعلني أُقبل على حماقة» كان ما يتردد في رأسه شديد القسوة، وهو يعلم، كان يعلم أنه إذا خرجت من رأسه تلك الأفكار لتتجسد ستكون العواقب كارثية.

انتهت صلاة العشاء والتراويح وخرجوا للتمشية والجلوس على أحد المقاهي حتى حان وقت التهجد، فرجعوا للمسجد وهي مازالت معه، ثم أنهوا التهجد وخرجوا للسحور مسرعين ثم عادوا لأداء صلاة الفجر، ثم ودعهم وركب سيارته وانطلق باتجاه منزله، كان الطريق الدائري شبه خالٍ، كان يسير على سرعات عالية، ويتردد في رأسه «إذا كنت سأفعلها فلا تُمهلني الوقت لذلك يارب» وصل البيت وتمدد على الأريكة، وتُعتبر ساعات الصباح هي من أخطر الساعات عنده، ففيها المشاعر والحنين، فيها الحب والشوق، وفيها القسوة أيضًا.

وفي غفلة من قلبه، كتب ولم يتردد كثيرًا، ولم يُراجع الكلام هذه المرة، وأرسل.

●●●

استيقظ بعدها بساعتين، مع ارتفاع في ضربات قلبه، الذي كان يلازمه في أوقات الخلاف بينهما، كان يشعر كأن ما فعله قبل نومه كان حلمًا، أمسك هاتفه وفتح الرسائل بدون اتصال بالإنترنت، يتحقق ما إذا كان كتب ما في رأسه فعلاً،

قام واستعد للخروج مع صديقه هارون الذي كان على موعد معه للذهاب للحصول على شهادة التحركات من المجمع، مجمع التحرير، الذي يعمل عكس اسمه على التقييد وليس التحرير، فإذا نجحت في عبور زحمت الانتظار، لن تنجح في تَحمُّل لامبالاة وطلبات الموظفين، وإذا عبرت هاتيك وتلك، ربما سيكلفك انتظار النتائج كثيرًا.

وصلا المجمع وأخبروهم أن موعد استلامها تأجل لما بعد العيد، وبعد جدال لا طائل منه رجعا بأيدي خاوية، وفي عودتهما، سأله هارون: مالك، مسَكت ليه كده ؟ ليرد عليه:» سيبني في حالي، شكلي عكيت الدنيا، هي يا هتعدي وتظبط، يا هتبوظ على الآخر»

شَغَّل النِّت وهو في السيارة فرأى رسالة من كلمتين

- وده ليه؟ لم يرد، بل انتظر حتى يعود لمنزله.

أعاد قراءة ما كتبه حين عاد ليرد على الكلمتين المقتضبتين منها،مهلاً هو حتى لا يذكر ما كتبه، فالكلمات المؤلمة التي تخرج من فيه يمسحها ويتناساها سريعًا حتى لا تنحفر في ذاكرته وتؤلمه، هوا فقط يَذكر قسوته.

يَذكر منه أنه أنهى فيه علاقتهما، يَذكر ما آلت إليه المحادثة، يَذكر أنها أخبرته أنها كانت تصلي الاستخارة قبل أن تصلها رسالته بقليل، وعلَّ ذلك هو رد الاستخارة، آلمته تلك الكلمات كثيرًا، عاتبته على أنه عبث معها بالألفاظ كثيرًا وتحملت هي، أما هو فعند أول رد سيئ منها يتخلى...ثم الصمت الرهيب والسكون.

●●●

أكمل هذا اليوم يلعن طبيعته في التجنب والتخلي عند أول خلاف ولكن لا يبدو على ملامحه التأثر كثيرًا، كان متماسكًا ليلتها يظن أنه سيعبرها، ظن أنها محطة يمكن أن لا ينزل بها، لم يعلم أنه كان القطار وهي القضبان التي لا يمكن السير بدونها، ولا يمكن لأحدهما الحياة بعيدًا عن الآخر.

ثم جاء الليل بويلاته، نام بصعوبة، واستيقظ الفجر بصعوبة، ارتفاع في دقات قلبه مع شعوره بصعوبة في دخول وخروج أنفاسه، أمسك هاتفه، وأرسل كلمات مختصرة.

«لا تخبري أهلك بشيء، وكأن شيئًا لم يحدث، أنا آسف «

رأت الرسالة ولكنها لم ترد، لم يستغرب كثيرًا وتملكه التفكير في الحل.

قرر الاختفاء من حياة الجميع ليكون في حياتها هي فقط ثم اختفت هي.

كان يومها هو أول أيام عيد الفطر، تذكر أن بحوزته رقم والدها، فأرسل له رسالة تهنئة بالعيد، لم تمر دقائق حتى وجد رقم والدها في اتصال على شاشة هاتفه، تفاجأ ولكنه رد سريعًا، وبعد التعريف والتهنئة، أخبره موسى أنه يريد تحديد موعد معه ليتقابل الأهل، فرد أباها أنه علم منها بخلاف بينهما، سريعة هي في رد فعلها، مع أنه أوصاها مرة في وسط حديثهما أن ما بينهما يجب أن يظل بينهما فقط، ليردف سريعًا، « ده سوء تفاهم، وعدى» ووعد والدها بأن أباه سيحادثه لتحديد ميعاد قريب جدًّا»

●●●

وفي حضور والده وعمه ووالدته، جلس على الأريكة في مقابلهم، يقول له اتصل الآن بوالدها، يرد مستنكرًا وساخرًا، ليه؟ ليرد عليه: « يا بابا ما أنا قايلك « ليبادله الحديث ولكن في مجرى مختلف تمامًا، في مجرى فتاة أخرى بنتًا لأحد أصدقائه، يرد موسى:» لأ، وده موضوع منتهي ومفيش مجال للنقاش «،ليُغلق الباب على والده، فيُمسك والده الهاتف ويتحدث إلى والدها، ويتفقا على موعد في ثالث أيام العيد، كان بالنسبة له هذا الموعد بعيدًا جدًّا، فهو بعد أن حادث والدها وفي انتظار عودة والده من زيارة أحد أقاربهم، كان يضع قميصه الأبيض بجانبه في السيارة، يبحث عن مكوجي، يستعد للذهاب إليها يومها.

مر اليومان وهو على نار انتظارًا للقاء، كان يتخيل رد فعلها حينًا ويضحك مع نفسه، كان يتخيل أنها لن تخرج لمقابلته، أو أنها ستخرج لتقول له أمام والدها مش هتجوزه يعني مش هتجوزه، كان يذكر ذلك مع نفسه ويضحك، لا يعرف ماذا سيكون رد فعله حينها.

●●●

أتى اليوم المنتظر وأتت الساعة المتفق عليها، لا يذكر تاريخ اليوم، ولا اسمه من بين الأيام، هو فقط يَذكرها هي، يَنْشدها هي، يتأسف لها هي فقط.

استعد، لحق أهله على السلم، تفاجأ بذهاب عمه مع والده ووالدته، تنحى موسى جانبًا نهائيًّا هذه المرة، كان كل دوره منذ خروجهم من منزله حتى جلوسهم في بيتها، هو أنه يحمل على يديه علبة الحلوى، وعلى قسمات وجهه خجل المتقدمين...

قابلهم والدها بالترحيب، وشعر موسى كأنه يعرفهم منذ زمن، جلسوا جميعًا، تحادثوا وتعرفوا، وكان هناك الكثير من الأسماء المعروفة لكلٍّ من والدها وعمه، وعندما وجدهم مندمجين هكذا، قال مازحًا: « كده يبقى أقوم أنا أمشي» فضحكوا جميعًا، ثم دعاهم والدها للجلوس في الشرفة ومن غير أن يذكر السبب، فتراءى أن ذلك يسمح لها بالحديث بحرية مع أمه،

وبعد الحديث مع والدها، تبين أنه زملكاوي على عكس موسى، فبادله موسى بقوله:» اختلفنا معلش» مع ابتسام والدها، ثم ذهب والدها ورجع بالشاي وأخبر موسى أن والدته تريده، عَلم أنه الشو تايم، الوقت الذي سيراها فيه، كان يتردد في عقله ويكاد أن ينطق لسانه بقول» والله ما محتاج أشوفها،أنا عايزها أيًّا كانت، أنا خلاص اخترت» فالشكل آخر ما يُدقق فيه، آخر اهتماماته.

اتجه للداخل ورآها، قال: بلغة شبه ساخرة» إزيك» فهما لن يتعرفا ولن يتحدثا لأول مرة الآن، فقد عبرا مرحلة التعارف منذ

زمن، فبينهما صولات وجولات، تحدثوا في مواضيع عامة وتبادلت المزاح مع والدته، كان إذا التقت عينه بعيني والدتها أثناء حديثها، يطيل النظر فزينة تملك عينيها، إذ لم يتاح له النظر بعمق في عينيها، فهو يحاول فك شفرة تلك الأعين من عيني والدتها.

كانت وجهها، مليحًا، بدرٌ ولكن بصورة مصغرة كبقية جسدها، شَعَر أمامها أنه عسكريًّا جُرِّد من جميع رتبه، ظلت ذاكرته تقارن بين الوجه الذي أمامه والوجه الذي رآه على الصورة التي حصل عليها من نظام الجامعة قديمًا، ظل يقارن بين العينين مع الوجه المكشوف وهو الذي اعتاد عليهما بدونه.

●●●

على ما يذكر، كان ذلك في آخر السنة الأولى من الجامعة أو بداية السنة الثانية، كان مطلوبًا من عدة مجموعات إلقاء محاضرات بالتتابع لمدة ساعتين بمعمل الكيمياء، وكانت هي ممن ألقى محاضرة، وكانت جيدة، بدأتها بما يُعبر عن ذكائها، وبعد خروجه هو وزملائه وجدهم يتبارون في النقاش والجدال حول تلك المحاضرة وانتهى اليوم، وعندما أراد أن يعرف من تكون وكيف هي درجاتها، فوصل لذلك عن طريق نظام الجامعة.

●●●

انتهى اللقاء الأول مع الاتفاق على تبادل الزيارة،

رحل وهو يحمل صورة وجهها البريء، وجهها الدائري الصغير الذي يتناسق مع عينيها الواسعتين، رحل وهو يذكر الوجنتين البارزتين عند ابتسامتها واحمرارهما عند خجلها، والغمزات، رحل وهو يذكر يديها الصغيرتين اللتين تتحركان كثيرًا مع كلامها، وقدماها اللتان تهتزان لتُظهرا توترها الذي تحاول جاهدةً إخفاءه، رحل وهو يحمل في أذنه صوت كعبها العالي الذي تُتابع دقات قلبه طرقعته على الأرض فينتظمان معًا.

وعندما عاد لمنزله ليلتها، أرسل لها يخبرها عن جمالها، فردت بوجه مبتسم من وجوه الفيس بوك، فرضي به على أمل أن تعود المياه لمجاريها.

●●●

لم يكد يمر يومان، ويخبره والده أن أباها تحدث معه لكي يذهب موسى منفردًا، فيتسنَّى له الجلوس معها ليتحدثا بحرية أكبر، هاتف موسى والدها وحددا يومًا في نهاية الأسبوع مساءً.

يومها كان مع هارون منذ الصباح، وكانا في نزهة مع أصدقائهم في كورس الألماني، احتفالاً بنهاية المستوى الأول، مرَّا على فرع قويدر بشارع عباس العقاد، ليختار شيئًا، يأخذه معه لها، وقع اختياره على كيكة غريبة الشكل، لم يكن مرتاحًا منها وشعر بفأل سيئ، لكنها كانت أفضل الموجود فاشتراها.

وصل بيتها وبعد الترحيب، جلس وفي مقابله ثلاثتهم يتبارون في أسئلته، شعر من كلامها وأسئلتها ومن تبريراتها بابتعاد المسافة بينهما، ففي الوقت الذي كانت المسافة بين الأهل قريبة جدًّا، كانت المسافة بين الأحبة بَعدت كثيرًا،قالت الكثير من المتطلبات وعندما سأله أباها عن طلباته، قال: « أن آكل من يديها منفردًا»

لم يتكلف عناء حفظ الطريق لبيتها، أو حتى علامة يميز بها المنزل من بين منازل الشارع التي تشبه بعضها كثيرًا، لم يتكلف عناء الرد على بعض الكلمات التي أثارت لديه علامات استفهام، فقط استمع، علقت بعض الجمل في رأسه، تيقن أنها ليست هذه المرة...

يخبرها أنه لم يرها إلا مؤخرًا، تضحك بثقة وترد:

«هذا طبيعي» ويصمت هو، فهي لم تفهم قصده ولن تفهم، فهو لم يرَ جسدها إلا مؤخرًا، لم ينتبه لمعالمه إلا قريبًا جدًّا، أحبها من عينيها فقط ولم يكن بحاجة لرؤية بقيتها، كان يراها بقلبه لفترة طويلة، لم تفهم كما لم تفهم الكثير، فصمت، كان يعرف النهاية،

تركهم والدها منفردين لدقائق، تحدثا في السياسة واختلفا، أخبرها أنها لا تفهم الكثير لأنها لم تُعايش المجتمع كثيرًا فصمتت.

تسأله: ماذا أحببت فيَّ؟

تسأله لو كانت أخرى غيرها في مجلسها يوم الاجتماع، هل كان سيعجب بها؟

ليردف...

موسى: هو أول سؤال إجابته سهلة بس التاني صعب شوية لكن على كلٍّ سأجاوب.

أولاً: ذكائك ويصمت لسانه ليكُمل عقله، وسرعة بديهتك، مرحك مع تدينك، الإرهاق المستمر في صوتك، والثقل البادي على جسدك في مشيتك كأنك تريدين الارتماء في أحضان من يَحمل عنك.

ينطق لسانه ثانيةً: أنا من زمان أتمنى المتدينة المثقفة وفي نفس الوقت تكون معي شيء ومع الآخرين صامتة عنيدة، عصية، ويُكمل عقله، أنتِ الحب بلا سبب ولو مَلك غيرك الكثير من أسباب الإعجاب، فكثيرًا ما قابلت، وقليلاً ما أُعجبت، ونادرًا ما أحببت.

ختم كلامه وهو يتهيأ للمغادرة، أنا عايزك زي ما أنتِ، ويُمسك لسانه حتى يُكمل عقله، ولا تضعي الشروط.

●●●

فكيف لكِ أيتها الحسناء الخلوقة أن تعبثي هكذا

كيف لكَ أيها الخدوم الطيب الوديع أن تكون قاسي هكذا

كيف لنا نحن الحبيبين أن نُصبح غرباء هكذا

●●●

obeikan.com

الفصل العاشر

الإسماعيلية، تلك المدينة التي لم يعرفها إلا عندما صادقته الحياة بصديق منها لا تُبارح الابتسامة وجهه والطيبة قلبه،ينصح بإخلاص، ولم يشعر منه موسى أنه يقول عكس ما بداخله قط. لكنه أصبح يهاب الذهاب إليها منذ تلك المكالمة التي أتته هناك، مثلما أقسم على عدم دخول قويدر مرة أخرى.

ففي خضم حضوره كتب كتاب صديقه باسم هذا، كانت الليلة جميلة يملؤها الضحك وتعلوها البسمات ويدوي فيها التصفيق،وفي ختام الليلة وهم وقوف حول العروسين أمام الدار يغنون، إذ يرنُّ هاتفه، ويجد اسم والدها على الشاشة، رد ويا ليته ما رد، ياليته تجاهل المكالمة وحادثه صباح اليوم التالي علَّ فحوى المكالمة قد تغير، أمسك هاتفه بقوة وتحرك بعيدًا عن أصدقائه وبعيدًا عن صوتهم العالي، ليُجري الحديث.

والدها: السلام عليكم، إزيك يا موسى.

موسى: الحمد لله بخير يا بشمهندس.

والدها: أخبار الكورس اللي كنت بتاخده إيه؟ خلص على خير!

موسى: آه، الحمد لله.

والدها: الحقيقة يابني، زينة بقالها أسبوع مبتامش من التفكير، ووصلت في الآخر إننا نؤجل الموضوع بينكم، لحد ما تخلصوا دراسة عشان متشغلوش بعض، وطبعًا كفاية التعرف اللي حصل بين الأهل.

موسى: فعلا كفاية تعارف الأهل.

أكملا المكالمة بمجاملات، كان موسى صادقًا فعلاً في نقطة تعارف الأهل، ومع توقعه لمثل هذه المكالمة ومثل تلك النتيجة، لكن انفعالات المشاعر على وجوهنا، وصوتنا المبحوح، وأعيننا الزائغة، وصولاً لأيدينا التي تخبط الهواء في عُنف، يُثبتون تأثرنا مهما أنكرنا، ومهما توقعنا واستعدينا.

عاد لحلقة أصدقائه حول العروسين بوجه غير الذي غادر به، فبادره اثنان منهم بسؤاله مالك؟ وجهك مقلوب ليه كده، رد بأنه لا شيء وهو يكاد ينفجر كالبركان.

وبعد أن غادر العروسان، قضى مع أصدقائه الليلة في محاولة إيجاد الطريق لمطعم السمك الذي تشتهر به الإسماعيلية، كانت أول مرة لهم في السير داخل شوارعها، ظلوا لثلاث مرات يدورون حول أنفسهم ويعودون لنفس النقطة، كانوا يظنون أن سبب ذلك

قسم الشرطة الذي أغلق جزءًا من الطريق أمامه، حينها رثى الضابط لحالهم، وفتح لهم الطريق، إلا إنهم عادوا لنفس النقطة مُجَدَّدًا وبعد استخدام نظام الملاحة هذه المرة، وحينها نزلوا من السيارات وسط موجة ضحك هستيري من الجميع لدرجة أن أحدهم سقط على الأرض يتدحرج كأنبوب البوتاجاز أمام قدمي صبي صغير من الضحك.

لم يعد موسى للسيارة التي كان يتواجد بها، لكنه استوقف تاكسي، أخبره أن الوجهة أبو علي، ركب، وأخبر أصدقاءه أن يسيروا خلفه ببقية السيارات ينقصهم سيارة هيثم التي قد تعطلت قبل بداية الحفل وتسببت في بياتهم.

بعد أن أوصل باسم عروسه لمنزلها، عاد إليهم في المطعم، وكانوا قد فرغوا من الأكل ليأخذهم إلى شاليه في القرية التي يشارك جده في مجلس إدارتها، وأول ما دخلوا كان لا يريد شيئًا سوى النوم بعد كل هذا الإرهاق الجسدي والنفسي والعقلي، اختار أول أريكة تقابلهم لتكون ملِكه هذه الليلة، خلع قميصه الأبيض وعَلَّقه على نهاية ماسورة الستارة في السقف فوقه، وسط نظرة اندهاش على وجه صلاح صديقه وهو يطل من شباك أول غرفة خلف الأريكة والتي يقع شباكها فوقها مباشرة، مدد جسده، وضع منتصف يده على عينيه ليتفادى بها ضوء الصالة، ولم يستطع

سد أذنه عن صخب أصدقائه الذي استمر طويلاً بعد أن كانوا في غاية الإرهاق لكنه السمك هوا الذي أعاد لهم النشاط على ما يبدو، تركهم في لهوهم وغط في النوم، بآمال مُعطلة كسيارة زميله، وأحلام مُعلقة كقميصه فوقه.

●●●

ومؤخرًا ندرك فداحة ما قلنا وأرسلنا، ما كتبنا وأوهمنا، ما رددنا وأظهرنا، فتحت تأثير الحب نكون في قمة الحنان ومنتهى القسوة، نذهب بعيدًا لننسى ما قلنا، لكن ذاكرتنا تأبى، ربما كلمة آسف لم تَكْفِ لها حينها ولا قيمة لها الآن، لكنه يواسي بها نفسه عندما يتذكر ويقولها لها في خياله.

استيقظ صباحًا منهكًا تتسارع دقات قلبه بعد النقاش الحاد مع والدها، الذي يأمره بالرحيل وهو مستمرًّا بالتفتيش عنها في غرف منزلهم، يصيح بالنداء عليها

زينة، زينة، زينة،،،،،،،،، مفزوعًا كالذي يبحث عن شربة ماء وهو على وشك مفارقة الحياة، يُخبرها أن ما دفعه إلى ما قاله هو إصراره للمرة الأخيرة على اختبار طريقتها في النقاش، هل ستتخلى عن طريقتها التي تقوم على قطع النقاش فجأة أم تتمسك بالاستماع للنهاية.

وجدت نفسها بين خياري القلب أم العقل، فاختارت العقل الذي لم يكن ناضجًا بما فيه الكفاية، كان يعرف النتيجة واستمر، لا يريد أن يدب خلاف بينهما لاحقًا، فلا تُظهر الرغبة في الاستماع ويُعرض هو حينها عن الكلام، فهو يقبل أي شيء إلا الإعراض عن الاستماع، أخبر نفسه إذا كانت النتيجة ما يتوقعه فلتكن، فهو دائمًا ما يقتل كل ما يثير الخوف بداخله حتى لا يخاف، فمع حبه لها وإصراره عليها، لا يقبل خوف الصمت ولا خوف الكلام ولا خوف الهجر، كان يقول لنفسه إذا استطاعت أن تعبر هذا الخوف والتردد من نفسها لنفسه، ستكون كل جوارحه مِلكٌ لها لنهاية العمر،أما إذا ثاورها الشك فقد اختارت أن تظل عالقة في الجهة الأخرى من الظلام والوحدة والحزن وسيعلق هو على اشتياقه.

وضع لها الخيار الأخير بينه والخوف، فاختارت الخوف وضل هو الطريق، حينًا يعتقد أنه اختار الحياة التي يرضاها لعقله وقلبه معًا، استقرار الحياة بغض النظر عن استقرار النفوس، وحينًا يود لو يقف أسفل شرفتها يُنادي عليها حتى تُلبي...

(ولو سألوني يومًا من أنتِ

سأقول بطلة اخترعها خيالي

فأضحت روايتي

ظننتها حقيقة، فأضحت سرابًا)

●●●

كانا متشابهين لدرجة كبيرة، لكن لم يدركا هذا التشابه إلا مؤخرًا وربما هو فقط من أدرك هذا التشابه...

متشابهان في صمتهما الطويل،في حديثهما بشغف عندما ينطقون، في ضحكتهما الواسعة عندما تُثار ثغورهما، في اهتمامهما بكل شيء الذي إن وجد يكون عبئًا على كليهما، لأنهما يُفضلان إعطاء فرصة أكبر لتجاهل معظم الأشياء حتى يحفظا راحة عقولهما،في تطلعهما ليكونا الأفضل دنيا ودين، ولكنهما يفعلان في سبيل ذلك القليل ويلومان نفسيهما على ذلك دائمًا،وأخيرًا في كبرهما وعنادهما وكرههما للشروط، فهو لم يكن يعني ما أرسله لها؛ يُفيقها بطريقته الصادمة، يضعها معه على نفس الطريق حتى يصلا للوجهة التي يتمناها.لا تأخذ المظاهر حيزًا عندهما ولا يستطيع الحزن أن يخيم بظلاله على أحدهما،

هذه المرة سارع بمحو كل شيء من ذاكرته قبل حاسوبه، من ورقه قبل هاتفه، نسي ما قاله وما قالته، رأى أنهما على القدر القليل الذي يعرفان به بعضهما البعض إلا أنهما يحملان الكثير من الذكريات، ضغط على عقله لينساها، ففاجأه عقله بأجمل

الذكريات بينهما، وعندما يهرب منها بالنوم، تظل معه وهو في العالم الآخر حتى استيقاظه،

عندما يجلس منفردًا، يكون جالسًا بجسده لا بعقله، فعقله حينها يكون في حالة لا يمكن وصفها بين الواقع والخيال، باختصار عقله معها وجسده وحده معه، يستفيق من هيامه متعجبًا، متى وصل لتلك الدرجة!

هاجمته ذاكرته بلياليي الشوق والفرح، بأحاديثهما التي كانت تطول أحيانًا لساعات لا يشعران فيها بالوقت، بالمواقف العابرة بينهما في أروقة الجامعة، وذَكَّرته بالجزء الثقيل علي نفسه، كيف كان سيئًا معها أحيانًا بدون قصد، وكانت هي جيدة معه كثيرًا

ولكن تُذكره ذاكرته متأخرًا...

تذكر عندما كان يُغازلها على موقع التواصل بشكل مبهم ويكتب لها، يأتي من يسأله عن اسم هذه التي يعشقها، يُخبره أن الاسم أكبر من أن يُقال، فالاسم له قيمته، علَّه يقدسه، لا يريد أن ينطقه أحد غيره، كان يتمنَّى ألا يقرأ أحد ما يكتب إلا هي، يتمنَّى أن يختفي الجميع وتبقى هي، تمنَّى الكثير ولم يفعل إلا القليل، غلبته طباعه مرارًا ودخلت في صراع مع هواه.

تحمـرُّ وجنتـاه ويشـعر بالخجـل الآن وهـو يتذكـر حينمـا قـال لهـا متغـزلاً في ثانـي محادثـة لهمـا: « تسـلم عنيكـي» وكـم كان خوفـه وسـعادته معًـا مـن تقبلهـا لهـذا الإطـراء مـن شـخص غريـب عنها،لكـن الفتيـات كلهـن يطوقـون للإطـراء عليهـن.

ومـن بـين كل مـا يـدور في رأسـه وينطـق بـه لسـانه بـلا تدخـل منـه، يجـد نفسـه فجـأة صمـت كل شـيء بداخلـه، لتتـردد كلمـة أحبـك، ثـم يعـاود ترديـد مبرراتـه الواهيـة حتـى لا يقتـرب منهـا ثانيـةً.

يشـيح بعينيـه عنهـا دائمًـا حتـى لا تـرى مـا بهمـا مـن شـوق ولهفـة وترقـب وأسًـى في أحيـانٍ كثيـرة.

يُكرر ما يعلق في رأسه من الشعر القديم:-

«يا غصن نقا مُكلَّلاً بالذهب

أفديك من الردى بأمي وأبي

إن كنت أسأت في هواكم أدبي

فالعصمة لا تكون إلا لنبي

يا مالك مهجتي تَرفَّق بالله

لابد لكل عاشق من ذلة.

●●●

أهواك أنا وليس لي عنك غنًى

أدنيك من المنى وأطوي الزمنا

إن كنت حلفت ألا تكلمنا

كَلِّم غيري لعلي أسمعك أنا

لم أخش وأنت ساكن أحشائي

إن أصبح عَنِّي كلُّ خِلٍّ نائي

فالناس اثنان، واحد أعشقه

والآخر لا أحسبه في الأحيائي

واللّٰه لقد سمعت في الأسحار

عن جارية تهيم بالأشعار

تاللّٰه لقد سمعت من منطقها

من عذب عاشقًا جُزي بالنار «

●●●

كان يتجنبها لا كبرًا ولا غرورًا ولا تحقيرًا، لكنه لا يجيد إلا التهرب من العيون، يخشى أن تفضحه عيناه، علَّه خجول بطبعه ولا ينطلق بحرية إلا مع العدد القليل من الأشخاص.

obeikan.com

عندما كان يستعيض عن ذلك بالتعبير قليلاً عما بداخله بكلمات أغنية،لم يكن بهذه التفاهة في الحب والزواج، ولكنه شبح الكلمات الذي لم يُدرك ملازمته له إلا مؤخرًا، كان وسيلة وليست الغاية، خطوة وليست الطريق، فترة قصيرة لن تؤثر على بقية الرحلة.

كانت تعبث معه بالألفاظ أمام والدها حول الأغاني والاستماع إليها، فسمع وعبر ذلك كمُتَّهَم في حضرة المحكمة ينعقد لسانه عن النطق بالأدلة، مُسلِّمًا بالحكم.

عندما خيرها بين الخطبة في نهاية الدراسة ونهاية العام، اختارت نهاية العام، وكان يُفضل نهاية الدراسة، لأنه أدرى بنفسه، يعرف أنه لا يصلح للعلاقات العاطفية العابرة، لكنه يصلح للزواج الكامل المبني على العاطفة والحب.

تذكر ذلك وتمنى لو أنه ذهب يوم وفاقهما لوالدها، لم يتأخر يوم ولا شهر ولا ترم ولا انتظر نهاية العام.

يجزم أنها المرة الأولى التي أحب فيها بصدق وعبَّر فيها بدون خجل، وعندما صارحته أراد الصمت حتى اللقاء، فعاتبته على الصمت فتكلم، وما أوقعه في الخطأ هو الكلام ومحاولته مغالبة طباعه في الصمت، رغبته في الحفاظ عليها بعدم الكلام

وغلبة الهوى له، عبوس وجهه الغالب وهي الصفة التي يعاتبه فيها معظم من يقابلهم دائمًا، مع شوقه لرؤية ابتسامة عينيها، فكم هي جميلة عيناها، فهي اللغة الوحيدة التي يفهمها مع النساء، فخطأه أنه لم يُبن أسباب صمته وكلامه، وخطأها أنها كانت تُعاتب وتصمت، تفعل عكس عتابها، فخطأنا هو إظهار خلاف ما نريد تحت تأثير المشاعر، غلبه كبرياؤه وقرر قلب الطاولة على الجميع حتى ينتصر لنفسه، ويعود لنفسه المطمئنة الواثقة، فكفاه بعثرة،،،،

« فياليتني لم أعرفكم وبعينيكم لم ألتق

أصابني سهم من العشق أَرَّق القلب وأرهقه

وفي طريقكم لم أجد مرسًى ولم أتعشم في اللقا

تركت أمركم للخالق علَّه بي يرفقا »

●●●

obeikan.com

الفصل الحادي عشر

كانت إجراءات السفر تجري على قدم وساق، فبعد أن لاحت الفكرة في أول الأجازة، ولم يكن متحمسًا لها حينها، أضحت هي الأمل الوحيد لملء فراغ روحه وليس هو فقط، ولكن صديقه أيضًا، الذي عانى معه الأَمَرَّين للاهتمام بالأمر، فبعد أن حجز هارون موعد السفارة، اكتشف موسى أن جواز سفره منتهيًا وبحاجة لوقت للتجديد، فترتب على ذلك أن لكل منهما موعد منفصل للتقديم في مقابلة السفارة، وبعدها انتظرا بترقب الموافقة على طلب التأشيرة. وفي نفس الوقت كانا يبحثان عن الطائرة التي ستقلهما بالسعر المعقول، وعندما كانا جالسين ليتحدثا عن احتمالية أن توافق السفارة لأحدهما دون الآخر، فكان الكلام يدور حول أنه لن يذهب أحدهما دون الآخر فلن يغدو للسفر قيمة حينها،وفي أثناء انتظارهما أتت له رسالة من السفارةُ تخبره بضرورة إحضار مستند ناقص، فذهب ووجد أن عليه أن يقف في طابور طويل أمام السفارة كما فعل عند التقديم، قارب من فكرة ترك الأمر برمته لما يحتويه على مهانة، لكنه تمالك نفسه وآثر الصبر حتى يرى آخر الأمر.

جاء اليوم الموعود لهارون برسالة صباحية للذهاب واستلام تأشيرته، ولم يكن موسى يدرك أنه ستأتيه رسالة مماثلة ولكن في وقت متأخر عنها.

لم يرَ الرسالة إلا في الرابعة والنصف، ولكنه أصر حينها على الذهاب للسفارة في الزمالك علَّه يلحق بها قبل أن تغلق أبوابها في الخامسة، بعد انقضاء تلك النصف ساعة كان موسى أمام السفارة، لم يملك الوقت حتى يبتعد عن السفارة ويركن في الأماكن المخصصة لذلك؛ فتركها بجانب سور قسم الشرطة الذي يقع في مقابل السفارة، واتجه صوب شباك الاستلام مع سماعه نداء الموظف « لسه في حد مسلمش إيصال الاستلام؟

أعطاه الإيصال، واستلم الجواز، ففتحه وقلب صفحاته بترقب حتى رأى صورة التأشيرة، أعاد قراءتها وعاد صوب السيارة، ليجد حارس القسم يدور حول السيارة ويبادره بقوله» كانت لسه هتتكلبش يا باشا» فيرد عليه مبتسمًا « كنت عايز ألحق السفارة» فيرد الحارس بابتسامة تحوي طلبًا خفيًّا، ويردف « ماشي»

أول من هاتف هو هارون، وعاد لمنزله ليستعد لمعركة جديدة صباحًا، وهي استخراج تصريح السفر من الجيش، وكان هارون يملك شهادة إعفاء مما سيسهل عليه الإجراءات، فاقترح على موسى أن يستخرجوه في طريقهم للمطار يوم السفر، ليرفض موسى ذلك معللاً بأنه دائمًا ما يكون لديه مشكلة مع الجيش.

لم يلبث مزاحه حينًا حتى تحول لحقيقة، فمع ساعات الصباح الأولى وبعد أن استلم هارون تصريحه، أخبر الضابط موسى أنه بحاجة لتقديم شهادة تُثبت أنه مقيد في الجامعة للعام القادم، لم يسمعوا هنالك لأي نقاش، لم يفهموا أنه لم يتبق إلا ثلاثة أيام على موعد الطائرة، لم يستوعبوا أنه لاستخراج تلك الشهادة يجب دفع مصاريف العام التالي وانتظار ختم الورقة من الوزارة، يُظهرون العُقم عندما لا يُفكرون إلا في إمكانية هروبك فقط، و إجراءاتهم تدور حول أنه كيف يتسنى لهم منع ذلك، فبدلاً من أن يُضيعوا المجهود في محاولة منع الناس من الهروب، ليوجهوا ذلك المجهود لمعرفة أسباب ذلك، والأهم محاولة إيجاد حل لتلك الأسباب، فهم يحاولون الهرب عندما يفيض بهم الكيل، يريدون الهرب ليبتعدوا عن يد الظلم والجهل التي تبطش بالجميع دون تمييز، يهربون أملاً في مستقبل له ملامح واضحة وطريق مُعَبَّد يمكنهم السير فيه، فقد أرهقهم اللف والدوران الذي ملأ جنبات وطننا.

بعد زيارات مكوكية بين الجامعة والوزارة والتجنيد تمكن من إعطائهم ما يريدون، وأعطوه ما يريد.

وجدا نفسيهما على سلم الطائرة أخيرًا يحاولون نسيان كل ما أنهكهما، يستعدان لرؤية عالم جديد بروح جديدة، متذكرين

كل المشقة التي مرا بها حتى يضعا أقدامهما على تلك العتبات أخيرًا.

كان موسى طبيعيًّا جدًّا يوم السفر صباحًا، يمارس عاداته الصباحية المعتادة في انتظار موعد الطائرة في الظهيرة، لم يكن يشعر بشيء غريب، وعندما حان وقت سحب الحقيبة وسماع طرقعة عجلاتها على أرضية منزلهم، رأى كل الخوف والحنين والشوق والأغرب من ذلك الاندهاش يتدفقون دفعة واحدة من عيني والدته وصوتها،تسأله: هو أنت خلاص ماشي؟ شعر أنها أدركت أنه مسافر حقًّا في تلك اللحظة فقط، ليرد مبتسمًا: وهو أنا بقالي شهر ونص بجهز لإيه!

ودعها ورحل.

●●●

ليلة السفر يُصبح كل شيء فجأة مُستحقًّا للتوديع

كانا يسيران في شوارع القاهرة بلا وجهة،

كانا يودعانها؛ فهما ذاهبان للمجهول ولا يعلمان هل من لُقًى مرة أخرى، فقد كانا يملآن أعينهما منها للمرة الأخيرة، فهي كالحبيبة التي تهرب منها لا لشيء إلا لأنك تحبها جدًّا،تمرر عينيك عليها من بعيد وأنت تستعد لمغادرتها،تأسى على حالكما ولكن ما بيدك حيلة.

عادا إلى منزله وناما حينها في غرفته، تشاركا السرير، تحدثا قليلاً وغط صديقه في النوم، وتذكر هو عندما كانا مستلقيين بنفس الطريقة بعد أن ذهب لها بعدة أيام، ويقول له صديقه بكل ثقة: «شكلك مش ناوي تروحلها» فضحك موسى وقال له: «أنا روحت خلاص» فانتفض صديقه وقال له: «احكي، احكي، بالتفصيل»

تستمر الحياة بمفاجأتنا يوميًّا بما لا نتوقعه أبدًا، بمواقف لم نتخيل أنفسنا فيها ومواقف سيئة لم نتوقع أننا سنواجهها يومًا، ننسى كل هذا عندما نكون مع عائلتنا أو أصدقائنا، حينها نفقد الذاكرة نهائيًّا، ولكن عندما ننعزل، ترجع الذاكرة، تحوم الذكريات، وتُعاد المشاهد مئات المرات...

فيكمن السر وراء الخطأ الذي اقترفه، وراء تعنته وعناده، هو أنه غار ومازال يغار من نفسه التي خضعت لها، من نفسه التي عصته كثيرًا من أجلها، من عقله الذي يعصاه ومازال يذكرها، وقلبه الذي مازال يُسرع النبض عندما يسمع عنها،يغار من يديه التي تعصاه كل يوم وتكتب لها، لطالما اعتاد عناد نفسه، فهو مختلف حتى في غيرته عن الآخرين، لم يحدث أن استوطن أحد قلبه بمثل هذه الدرجة،لم يشغل أحدهم كل هذا الحيز من عقله سابقًا، فهذه كلها أسباب كافية ليغار.

افترقا هذه المرة ووضع بنفسه الخط النهائي لهذه العلاقة، افترقا ومازال يحلم بها، مازال يُنازع نفسه من السير خلف خطاها، يسأل نفسه كل يوم متى أحبها كل هذا الحب، ومتى ينساها، ومتى يتقبل عقله قراره وقرارها مسبقًا.

تذكر كل ذلك، ونام محاولاً توديع الأسى لكنه يستمر في ملاحقته.

●●●

غادره صديقه بعد الفجر، ليتسلقا سلم الطائرة معًا بعد الظهر، كانت الطائرة المتجهة بهما إلى ألمانيا ستهبط أولاً في فيينا ثم ستكمل نحو وجهتها، عندما تحركا في مطار فيينا هالهما أن كل

شيء يعمل أوتوماتكيًّا، ففي بداية سفرك تندهش من كل ما تراه، ولا يكف عقلك عن المقارنة بين ما تراه وبين ما يحدث في بلدك، كان يفصل بين الطائرتين نصف ساعة، خرجا من المطار ليجدا نفسيهما في شوراع فيينا. تمشيا قليلاً فقد أعجبهما منظر البلد من شباك الطائرة، فأرادا أن يريا ذلك الجمال على الطبيعة، بعد أخذ عدة صور ذَكَّر موسى زميله وصديق رحلته أنه يتبقى عشر دقائق على موعد المغادرة، رجعا للمطار وعند وصولهما للبوابة التي تقع في أول الأنبوب الذي سيقودهما للطائرة، كانت اللوحة تومض بكلمة Bording بما يوحي بوجوب التوجه للطائرة إلا أن هارون نفى ذلك فوافقه، ولكن بعد قليل ثاوره الشك، فسأل موظفة الاستقبال:-

موسى: هي طيارة برلين هتتحرك امتى؟

الموظفة: هو أنت رايح عليها؟

موسى : أيوة.

الموظفة: ومستني إيه، يلا بسرعة.

تركها وذهب لينادي هارون الذي مع تأخيرهما هذا، ابتعد عن البوابة، وجده وأخبره باستهجان الموظفة، كانت تلك هي بداية الفوضى التي لازمتهم لاحقًا في كل طائرة حجزوها، وكل باص

استقلوه، وكل قطار نقلهم، يبدو أن فوضى قلوبهم انعكست على أفكارهم وأفعالهم.

●●●

وصلا مطار برلين، خرجا من المطار، ووجدا أنفسهما في الشارع مباشرة بدون أية إجراءات، فحسب قوانينهم فإن إجراءات فيينا تكفي، كان المنظر العام يوحي بأنهم خارجون من محطة مترو العباسية في وقت العشاء، استفسرا عن ذلك فأخبرهم مندوب الأكاديمية، الذي كان في انتظارهم أن هذا المطار يقع في منطقة شعبية من أحياء برلين، وسارا مع المندوب وفتًى كان معهم على نفس الطائرة، ولكنهما لم يتعرفا عليه إلا بعد الوصول، مسرعين للحاق بالقطار الذي سيوصلهم لمحطة الباص.

قضيا الليلة في المحطة بين نوم على كراسي الانتظار مثلهم مثل بقية المسافرين الذين ينتظرون باصات الصباح، وبين الاستيقاظ لأكل شيء أو التمشية في شوراع برلين بجانب المحطة في هذا الليل الذي لا ينقضي ويمر ببطء.

أتى الصباح أخيرًا، وأتى الباص الذي سيُقلهم للوجهة الأولى وليست الأخيرة في هذا السفر البعيد.

قضيا الساعات في الباص بين النوم والنظر للمناظر الخلابة على جانبي الطريق، فإرهاق السفر يلازمهما، كانت في كل هذا هي مختفية عن المشهد، كان حائط الصد لديه مازال متماسكًا.

بعد الباص الذي وصل كيمينتس، استقلا القطار مع مندوب آخر لينزلوا جميعًا في محطة قُرب الأكاديمية تُدعى أينسيديل، ثم أخذهم باص الأكاديمية صعودًا في طريق جبلي على جانبيه أشجار الغاب والفيلات لينتهي بهما السفر في الأكاديمية أخيرًا.

أرشدهم المندوب لغرفهم، أخبرهم أن المطعم يقع في الجهة المقابلة من الشارع، وأن بإمكانهم الذهاب لتناول الغداء، كان الوقت حينها يقترب من الغروب وكانا لايزالان مبهورين بالمشهد، فانطلقا يتجولان في المنطقة حول المطعم، ثم اكتشفا أن الأكل فاصوليا في شربتها، فاكتفيا بالنظر وعادا لغرفتهما، ليُخرجا ملابسهما للنور ويضعونها في الدولاب، ويجلسان مقابل بعضهما البعض يحاولان تصديق أنهما فعلاها أخيرًا.

●●●

أتى الليل مرة أخرى ولكن وهما مستقرَّين في مكان ما الآن، دعى مندوب الجامعة كل من في السكن للتجمع في فناء الأكاديمية للحديث، كانوا كلهم مصريون بالإضافة للمندوب،كانوا متراصين كأفراد مجموعة مجهولة، يحاولون تبين ملامح بعضهم البعض

بصعوبة تحت ضوء القمر مع انعكاس ضوء المصباح الوحيد في الساحة على وجوههم؛ فيظهر وجه المندوب كالدجال ويشعرون منه بسوء النية، كان معظمهم يضعون غطاء الرأس ليحميهم من المطر الذي يتساقط عليهم، يتبارى كلٌّ منهم في إظهار تذمره، لم يصلوا لشيء، وعاد كلٌّ منهم لغرفته، كان الحديث يدور حول آداب عامة يجب الالتزام بها ولكن يصعب على المصريين ذلك كثيرًا، فهم يعتقدون أن الحداقة والمفهومية تُغني عن العلم والنظام. حضرا أول محاضرة في اليوم التالي، وفي اليوم الثالث قررا التجول خارج أسوار الأكاديمية، ففي الثالثة عصرًا نزلا بالدرجات التي كانت توفرها الأكاديمية إلى القرية لاستكشافها دون أي نية للابتعاد كثيرًا، فسارت معهم الخضرة والجمال وسار معهما في الطريق الرئيسي وسط الأشجار حتى وصلا مركز المدينة - الذي يبعد حوالي ١٥ كيلو عن القرية - واشتريا بعض الأشياء ودقت الساعة الثامنة فأغلقت كل المحلات أبوابها وأصبحت المدينة شبه فارغة، لا يستقبل زبائن فيها غير بعض المقاهي والملاهي الليلية، فتحركا في طريق العودة وكان لسوء الحظ أن إحدى العجلات قد أصابها قطع فرجعا سيرًا كلٌّ مُمسكٌ بدراجته. وصلا القرية في الثانية عشرة ليلاً ووجدا نفسيهما عند مفترق طرق، لا يتذكرا منه شيئًا فقد كان نزولهما نهارًا ورجوعهما ليلاً في أول مشوار لهما،فسلكا الاتجاه الأيسر اعتقادًا أنه الاتجاه الصحيح، صعدا بجانب أعمدة

الإنارة التي يَقِلُّ عددها تدريجيًّا حتى اختفت تمامًا، وهاتفان تقارب بطاريتهما على النفاذ، أكملا الصعود في الظلام على طريق لا ينتهي، وتضاءل الأمل في الوصول للوجهة المطلوبة، كانا يسيران للأمام على ضوء الكشافات مخترقين الضباب تهمس في آذانهم أصوات الأشجار التي يلامسها الهواء، ويخيفهم صوت خرير مياه لا يعرفان مصدره، كانا لا يملكان الشجاعة للنظر خلفهما فقد كان الظلام حالك ومرعب. رجاه هارون أن يوجه هاتفه للخلف فأذعن له فزاد رعبه فقد أصبحا فعليًّا في منتصف الظلام، لا يقدران على العودة ولا يعرفان إلى أي وجهة يأخذهما هذا الظلام، موقف يشبه كثيرًا حياتهما التي يعيشانها، أخذهما من حيرتهما وخوفهما صوت سيارة قادمة ورأيا نورها يجيء من إحدى ثنايا الطريق، فأشارا إليه بيديهما وهي تحمل الهواتف المضاءة، فتوقف، فَهم منهما بصعوبة أنهما تائهان ويريدان الوصول للأكاديمية، أمليا عليه اسمها، فبحث في خرائط جوجل على هاتفه وأخبرهم أنها تبعد كيلومترين عن موقعهم ولكنه نصحهم بالعودة؛ لأن في رأيه أن نهاية الطريق الذي يسيران فيه لا تؤدي لشيء، شكراه ليتحرك هو وبقيا هما في مكانهما.

في تلك الأثناء لمحا ضوء خافت يظهر في نهاية الطريق أعلى الجبل فقررا السير نحوه علهما يجدان من يُفيدهم، أو يقضون

ليلتهم عند هذا الضوء حتى الصباح فقد تملك منهم التعب،وصلا لأعلى فوجدا عامود إنارة وحيد ومطعم مغلق وخريطة حاولا فهم أي شيء منها، وجلسا أسفل العامود يأكلان خبزًا ويُبَلِّعانه بزجاجة المياه الوحيدة معهما وكان من حسن حظهما أنهما اشترياهما قبل تحركهما من المدينة.يتحدثان عن حظهما ويضحكان على ما يحدث، شرع هارون في قَصّ الحكاوي التي يراها في أفلام الرعب فهو يحب هذا النوع ليصده موسى حتى غلبه النوم وهو جالسًا على الأرض ساندًا رأسه على حائط المطعم.

استيقظ في الثالثة صباحًا ليجد هارون مستيقظًا يغطي الاحمرار عينيه ويتملكه النعاس، أخبره موسى أن ينام وأنه سيظل مستيقظًا ليحرسهما، لم تمر دقائق حتى كان موسى مُمَدَّدًا بجانبه على الأرض مرتديًا الجاكت الذي اشتراه لتوه من المدينة، محتمين من المطر الخفيف الذي استمر هطوله طوال الليل بجزء بارز أعلاهم في حائط المطعم.

استيقظ هارون في الرابعة ليصرخ في موسى: «أنت نمت، إحنا في منطقة مقطوعة، افرض حاجة اتعرضت لينا» واقترح عليه النزول من حيث أتيا فقد اشتاقا للسرير كثيرًا، وافقه موسى، وأغلقا كشافات الهاتفين حتى لا يلفتان أي انتباه، ونزلا يسيران على انعكاس ضوء القمر على الخطوط الفسفورية في منتصف

الطريق، مجرد صرير عجلات الدرجات يخيفهما، ويرعبهما هذا الجزء من الطريق الذي تختفي فيه أشجار الغاب على جانب الطريق وتظهر ساحة ممتدة في الأفق تحت ضوء القمر مع سماع خرير الماء مجَدَّدًا والذي لايزالان لا يعرفان مصدره.

كانت أعينهما تقارب عدم الرؤية من شدة تركيزها على تلك الخطوط مع ذلك الظلام الحالك والضباب الكثيف كأنهما يخترقان السحاب، وكانت أجسادهم ترتعش من البرد والخوف، وصلا لمفترق الطرق أخيرًا مع تنهيدة عميقة تُنفس عن أنفاسهما التي كانا يحبسانها طوال الطريق ولا تَخرج مُكتملة، ومرة أخرى لم يجدا بديلاً عن السير إلا في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي سلكاه قبلاً مع الخوف أن يقود إلى اللاشيء مرة أخرى، فقد أضحى الوصول للأكاديمية أُمنية صعبة التحقيق، كانت هناك شوارع هذه المرة على جانبي الطريق، شرعا في قراءة أسمائها حتى وجدا شارع الأكاديمية، صعدا فيه ولم يصدقا أنهما قاربا الوصول إلا بعد ظهور بداية سورها، دخلا مطعم الأكاديمية أولاً وأكلا بنهم، ثم اتجها للغرفة وتمدد كلٌّ منهما على سريره بشوق، وغَطَّا في النوم بعمق لم يشهدا له مثيل.

●●●

عند خروجهما من القاهرة، كانا ينويان عدم التواصل معها نهائيًّا حتى عودتهما، يريدان العيش بروح جديدة ورؤية جديدة تلك الفترة التي سيعيشانها في الخارج، ولم يمنعهما من إغلاق هاتفيهما نهائيًّا إلا الاطمئنان على ذويهم من حين لحين، وعدم رغبتهما في إثارة القلق لديهم، فقد كان جو القاهرة يعبق بذكريات كثيرة تثير لديهما الشجون أحيانًا، ولم يكونا يريدان ذلك في تلك السَفْرَة، فقد أضحت مخرجهما الوحيد من الأزمة، هروبهما الذي يأملان أن يعودا منه ببداية جديدة.

خرجا في قارب النجاة الأخير بعدما غرقت سفينتهما مع كل ما بذلاه من جهد لتفادي هذا الغرق.

خرجا في رغبة وشوق وحماس، عسى أن يجدوا ما يروي أرواحهم التي ظمئت واشتد بها العطش.

خرجا مقبلين على المغامرة لا يخشيان أية خسائر، فقط يريدان النشوة حتى لو ارتبطت بالخوف وارتبطت بالمجهول لعل القدر يُحسن ترتيب الأوراق للعب من جديد.

●●●

استيقظ صباحًا بعد تلك الليلة العاصفة، لا يقوى على الضغط على أقدامه عند المشي، كان معه كريم للوجه وضع منه

على قدميه علَّ النار التي بهما تهدأ مع نية لعدم الخروج من الأكاديمية لفترة طويلة.

ظلا لعدة أيام يواظبان على المحاضرات وتمر هذه الأيام بهدوء، كان موسى يستيقظ في الخامسة، ويجري صعودًا إلى قمة الجبل التي كانت الأكاديمية في منتصفه ليملأ عينيه من المناظر الخلابة ويملأ رئتيه بالهواء المنعش، ثم يعود في الثامنة لإيقاظ هارون ويتجهان للمطعم ليقابلا بقية الطلبة ويفطرون جميعًا ثم يتجهون للقاعة في التاسعة ويخرجون في الثانية عشرة والنصف. بعدها أحيانًا ينزلان للقرية في الأسفل يتجولان في شوارعها كأنهما من سكانها الدائمين، وينتهي بهم المطاف باستذكار دروسهم على مقهى صغير في أطرافها، وفي عودتهما يتوقفا قليلاً عن النهر الذي يمر بها، لم يُعكر صفو ذلك إلا طالبان أظهرا الحقد، فقد تذمرا منهما لأنهما أتيا من القاهرة والتحقا بالمستوى الثاني من كورس اللغة مباشرة دون تقديم شهادة معتمدة بإنهائهم المستوى الأول، ودون الخضوع لامتحان قبول، أخبره هارون بقصتهما وما قالاه لمدير الأكاديمية، فقال له: « سيبها على الله، ومتوجعش دماغك »

وبعد تلك الأحداث بيومين أو ثلاثة، كان هو وهارون قد نويا على مذاكرة ما تم تحصيله بجدية تلك الليلة لا لشيء إلا لأنهما

لا يريدان تراكم الدروس عليهما، ظلا حتى السابعة صباحًا حينها غلبهما النوم واستيقظا في التاسعة، وقد وجد موسى بطارية هاتفه توشك على الانتهاء ولكنه آثر أن يأخذه معه،

وبعد دخولهما القاعة مباشرة، نزل لهم مدير الأكاديمية واختارهما مع ثالث لدخول امتحان مفاجئ لتحديد المستوى مع نظرة انتصار على وجه من تسببوا في ذلك.

وبعد جلوسهم أخبرهم المراقب أن بوسعهم استخدام الهاتف للترجمة فقط، فحمد الله ثانية أن أخذ هاتفه، بعد أن حَمَدَه على مذاكرتهما بالصدفة، فهو يقف متأملاً أمام ترتيب الله لأموره ويشعر بالعجز التام أمام قدرته سبحانه.

انتهوا وأخبرهم المدير أن النتيجة عند الظهيرة،

وكانت المفاجأة أن نجحوا ثلاثتهم، فدخلوا القاعة منتصرين لم ينظروا حتى لمن تسببوا في ذلك ولم يُعيروهم أي اهتمام، ولم يتوقف هؤلاء عن حقدهم إلا بعد عدة تجاذبات وشجارات انتهت بالتفاهم والوصول لتسوية، ولم يكد يَفْرغ من هؤلاء حتى عادت هي.

●●●

كثيرًا ما يلجأ لعلاج ما يدور في رأسه بالنوم، لتطارده هي في أحلامه، فعندما يتسلط القلب والعقل على الجسد يفتكان به أشد الفتك، ومع ذلك العذاب تجد حلاوة أحيانًا.

وجد نفسه في حفل وتغني فيه فرقة عدة أغاني لفيروز، ينظر بجانبه ليتفاجأ بوجودها، لم يحادثها ولكن تردد في ذهنه كيف ذلك وهي تُحَرِّم الأغاني وتُنكر سماعها، ظل يستمع بجانبها في شرود حتى انتهى الحفل وخرج قبلها ثم خرجت مع زميلاتها.

استيقظ بسؤال نفسه عن الوقت الذي يحين فيه الفكاك منها، فما يلبث أن ينشغل عن التفكير بها أو يتناساها إلا ويباغته حلم، أو كلمة تشبه كلامها تُقال حوله أو موقف يثير روايتها أمامه.

فتح هاتفه ، ليجد رسالة منها.

●●●

مع إطلالة شباكه على الغابة الممتدة خلف الأسوار الشائكة للأكاديمية، كان المطر يهطل وهو مُثَبِّتًا عينيه على تلك الصورة، لم يتخيل يومًا أنه سيعيش ما قرأه في الكتب والروايات بحلوها ومرها، فمنذ فترة تجنب قراءة بعض الأنواع، أصبح يخشى من واقع ما يقرأه، فبين أحلام النوم التي تتحقق وسطور كتب يُسطرها الواقع يعيش هو، ينسى كثيرًا من الماضي ولكن تداهمه الذكرى

فجأة وهو يذاكر صباحًا على نسيم الهواء الذي يداعب الشجر. ويتذكر الكثير وهو يسير على أنغام فيروز ليلاً تحت المطر فكم من كلام وَدَّ لو قاله، وكم من أفعال وَدَّ لو كَفَّ عنها، أصبح عاشقًا للمطر والشجر، يُفكر كثيرًا في الجري وسط الغابة بدون توقف فالحرية عشق لأمثاله، أصبح يضع الغد في المشيئة ويحاول اليوم أن يفعل بعض الشيء وفي النهاية يعيش ذاكرًا ما قد مضى، آملاً فيما سيأتي، ينفث دخان سيجارته محاولاً أن ينفث معها حبها. هذه الأصابع الملفوفة التي يتبارى الناس في وضعها بين شفاههم، لم يقتنع بها يومًا، ولكنهما كانا يلجآن أحيانًا لها للتغلب على البرد والقدرة على البقاء مستيقظين ليلاً كما حدث معهم عند المحاولة الثانية للذهاب إلى براغ. بعد فشل المحاولة الأولى، ففي تلك المحاولة استطاعا النزول من أعلى الجبل إلى القرية واللحاق بالقطار لينقلهما إلى وسط المدينة؛ ليستقلا الباص إلى المدينة الذهبية التي تقع على نهر فلتافا، براغ التي لم تكن تبعد كثيرًا عن ولاية ساكسونيا التي يقيمان بها، وصلا هناك قُرب الغروب، وعندما رأى موسى الازدحام المروري وسير سائق الباص في خط الترام لتفادي الزحام، عرف أنها ليست بتنظيم ألمانيا، تمشيا في المدينة، عبرا أزقتها، حتى وصلا تشارلز بريدج، وكان منظر المدينة والنهر خلابًا من أعلى الجسر وخصوصًا البلدة القديمة. عبرا الجسر للناحية الأخرى حيث توجد قلعة براغ الشهيرة، ظلا

يتحركا حتى أنهكهما التعب فسأل موسى هارون: متى حجزت باص العودة؟ ليرد هارون بكل هدوء: «أنا لم أحجز باص عودة» فبادله بسؤال آخر بهدوء أيضًا لكن يشير لعاصفة قادمة: لماذا لم تحجز باص عودة وأنت الذي حجزت الذهاب؟

ليرد بإجابة دفعت موسى لتمالك نفسه بعدها بصعوبة: «ما أنت مقولتش»

أكملا السير في شوارع براغ ليلاً يحفظانها عن ظهر قلب بدون باص عودة، وبعد أن باءت محاولاتهم بأن يجدوا مكان يبيتان فيه بالفشل، كان النعاس يحيط بهما مع لسعة البرد، اللذان يجعلان المرء في حالة شوق للنوم، للسرير، أصبح الشعور بالدفء حلم بعيد المنال بالنسبة لهما، تراءى لهما أن يرضخا للعرض الذي قدمه لهم هذا الرجل ذو البشرة السوداء عندما قابلهم أول ما حطا أقدامهما في هذه المدينة، والذي كانا يستمعان له في مرح ولا يعتقدان أنهما سيقبلانه أبدًا.

●●●

وفي غفلة من عقلي ركضت كثيرًا وبقوة خلفك، أبحث عن هذا الجزء في عقلي فلا أجد أثر له، فقد كنت أهيم خلفك كالسكران الفاقد لوعيه،

وعندما أفقتُ قبلتكِ كما أنتِ،

وعندما أفقتِ وضعتِ شروطكِ،

فخسرتِ كثيرًا من رصيدكِ عندي، حتى وجدت أنكِ لم تفهمي طبيعة ما بيننا، ففي لحظة ما قررت إنهاء كل شيء، وعدت لأصحح الأوضاع بعدها بساعات، لم تقبلي أنتِ هذا؛ فكتبتِ النهاية لقصة حيرت أصحابها أنفسهم قبل أن تُحير من يعرف عنها.

تَذَّكر كل ذلك عندما استيقظ من حلم فيروز، ليجد رسالة منها محتواها الوحيد علامة لايك، يبدو أنها كانت تختم بها الكلمات القليلة التي راسلها بها عند آخر خلاف، ولكنه مسح الاسم بما أرسله الآن ، كما مسحه سابقًا، فقد فات الميعاد وانتهى كل شيء بالنسبة لهما.

●●●

رجعا أدراجهما إلى الطريق الذي قابلاه فيه ليجداه مازال في موقعه يبيع المتعة والإغواء مع تأكيده على مجانية الدخول، أخبراه بموافقتهما على الذهاب معه ولكن بدون العرض المقدم، سيجلسان لا يحتسيان غير ما اعتادا عليه في بلدهم، أظهر الموافقة، فسارا معه قليلاً لينزل بهما إلى ملهًى أسفل إحدى البنايات التي يحفها الهدوء من الخارج، ليجدا عالمًا مغايرًا لما فوق الأرض لكنه يشابهه في قانون الحرية المطلقة، طلب موسى

شـايًا، طالبًـا منـه الـدفء واليقظـة، وطلـب هـارون مشـروب طاقـة ليحافـظ علـى تركيـزه وسـط كل هـذه الضوضـاء.

شرعا في متابعة العروض التي كانت تبدأ بحركات مثيرة وتنتهي بالعـري الكامـل، يتخللهـا فتيـات يمـرون علـى الطـاولات ليشـرحوا قائمـة الليالـي الحمـراء والتـي تتواجـد بجانـب قائمـة القهـوة والشـاي والبيـرة، يسـتهجنّ عـدم مبادرتـك بحجـز سـريرك معهـن بعـد وهـنَّ ينفشن رائحتهـن المثيـرة مـع همسـاتهن في أذنيـك، لا يَمَلُّلْنَ مـن تكـرار طلبهـم كمـا لـم يمـلأَّ مـن صدهـم، حتـى اقتربـت منهمـا سِـلْفِيًّا، الأكثـر إثـارة في أنوثتهـا، تلـك التـي تملـك الجمـال الكامـل، تفتنـك معالـم وجههـا قبـل جسـدها. التفتـت ناحيـة هـارون، تبـث سـموم أنوثتهـا في أذنيـه وكانـت قـاب قوسـين مـن شـفتيه، تعـرض عليـه بضاعتهـا وهـو يشـتم رائحـة أنفاسـها المثيـرة، فيسـتمع ثم يصدهـا بقولـه: « الفلـوس معـاه هـو، وهـو مـش راضـي « فتلتفـت لموسـى، فيصدهـا بكلمـة لا مـع إشـارة يـده بالنفـي وبسـمة مَنَعَـة، فهـو يُظهـر الجـلادة والمَنَعَـة عندمـا تظهـر أمامـه الميوعـة الكاملـة مـع ضحكـة اسـتهزاء بالموقـف الكلـي الـذي يتواجـدان فيـه.

ظـلا علـى مقعديهمـا حتـى قُـرب بـزوغ فجـر اليـوم التالـي، آثـرا الخـروج مـع تسـلل النـوم إلـى جفونهمـا علـى الرغـم مـن حجـم الضجـة والإثـارة اللتـين تمـلآن المـكان، أكمـلا السـير في الشـوارع بـلا وجهـة

حتى وجدا ماكدونالدز فاتحًا أبوابه، فدخلا بهدف النوم تحت غطاء احتساء نسكافيه موضوعًا أمامهما على الطاولة، يتخلل ذلك إيقاظ أمن المطعم لها بين الحين والآخر، لكنهما أصرا على النوم ولو بقسط هين.

وفي الثامنة بعد تلك الليلة الطويلة، تحركا في الشوارع مُجَدَّدًا ولكن هذه المرة في ضوء الشروق ونسمة الصباح، تناولا إفطارهما وشرعا في التعرف على الأماكن السياحية حتى وصلا إلى أبعد ما يكون فيها، تجولا في قلعة براغ وتمتعا بكل ركن فيها، اشتريا بعض التذكارات، يمضيان الوقت حتى يحين وقت دخول الهوستيل الذي حجزاه صباحًا، وهو مكان يتشاركان فيه نفس الغرفة مع عدة أفراد آخرين كلٌّ على سريره، تغفو على وجوه وتصحو على وجوه، ولم يخلو الوصول إليه من المشقة بسبب عدم استعدادهم وكسلهم أحيانًا ، واعتماد أحدهم على الآخر كثيرًا.

فبعدما سارا بعيدًا جدًّا عن المكان الذي نزلا به أول مرة، قررا العودة لذلك المكان ظنًّا منهم أن الهوستيل يقع بقرب تلك النقطة، ولم يُكلفا نفسيهما عناء النظر للخريطة قبل العودة، وبعد السير طويلاً مقوامين التعب، وصلا ليلتقط موسى إشارة واي فاي ويدخل على موقع الهوستيل ليجد أنه كان يقع خلفهما بقليل عندما كانا بعيدين. تَسَمَّرا كأنما أصابتهم صاعقة، نظر

موسى لهارون ونظر لكشك الشاورما التركي أمامهم، وقال: « سنبتاع الأكل ونرجع أدراجنا في صمت ولا أريد أن أسمع أي كلام، فكفى ما واجهناه ليلة البارحة وما نتجرعه الآن « فحلاوة تلك الشاورما ستُحلِّي ولو بشكل جزئي تلك المرارة التي يشعران بها، كانت تسمى Donorbox ، وكما يوحي اسمها فهي علبة من الكرتون تُشبه تلك التي يُؤكل فيها الفشار عند الذهاب للسينما ولكنها مليئة بالشاورما وقطع البطاطا اللذيذة وخضروات تجعل منهم خليطًا رهيبًا وشوكة بارزة تضفي شهية عليها.

تحركا من أمام المتحف الوطني في وسط المدينة ، يجران أقدامهما في شوارعها حتى عبرا جسرًا صغيرًا، يقع أمامه مباشرة في الجهة الأخرى سُلَّم صعد بهما لحديقة غناء، قطعاها طولاً كأنما يمران بصورة مصغرة لحديقة حيوان، يمر بهما من يجرُّ بجانبه كلبًا صغيرًا جدًّا لا يفرق عن القطة كثيرًا، ويمران بمن يسير وخلفه كلب يَقرب حجمه من خروف سمين مع شعر أكثر كثافة، أشجار غريبة ومُختلفة وحفلات في كل الأرجاء كعادة تلك الشعوب حتى وصلا لمنطقة سكنية بعدها، يفصل بينها وبين الحديقة شريط سكة حديد ويقع بعدها مباشرة الهوستيل.

ناما، واستيقظ هارون ليلاً، يدعو موسى للنزول، فلم يرد موسى أصلاً، فنزل هو للتجول في المدينة وللشاورما، واستيقظ موسى باكرًا لينزل منفردًا يبحث عن كافيه يحتسي فيه قهوته

الصباحية فقد كان هارون يغطُّ في النوم، وعندما وجد واحدًا، دخله، وكانت التي تصنع القهوة وتقدمها فتاة تشيكية تُضفي من جمالها على القهوة؛ لتخرج من بين يديها فاتحةً للشهية على الحياة، تذكر حامد الذي كان يُعد له القهوة في مصر ونفض تلك الذكرى سريعًا، وبعد فراغه، عاد لهارون، ليسجلا خروجهما إيذانًا بانتهاء الزيارة.

عادا من تلك السَفْرَة الصغيرة بخبرة وعبرة ليضعاها في اعتبارهما أثناء الإعداد لمرحلة ما بعد ألمانيا، فالسفر هو المكان حيث العنوان الوحيد هو الاعتماد على النفس، غابا وتاها وعانيا ولم يسأل أحد، ولو لم يعودا لن يشعر أحد بذلك أيضًا، ولن يفعل أحد شيئًا حيال هذا، وحده الوطن يتواجد فيه من يسأل، ومن يبحث، من يقف بجانبنا عند الحاجة، وليت الوطن يصبح وطنًا بكل ما تحمله الكلمة من معنًى.

●●●

قارب ذلك الشهر في ألمانيا على الانتهاء، وبدأ الإعداد للرحلة التي سيدوران فيها على عدة مدن وبلدان، يريان بأعينهما ما يسرهما، ويستمعان بأذنيهما ما ينتشيان به، ويُكملان السير بأقدامها في المجهول، وفي أثناء ذلك ينفثان ما بهما من هموم وسموم الحب الباقية، علَّهما يعودان بقلوب لا تشوبها شائبة كأنما لم يمسها مس من الحب، وما لازمه من خوف ومكابرة وعناد.

بدآ بِعَدِّ المدن التي يَوَدَّانِ الذهاب إليها، وكان صديقه ينتظر بفارغ الصبر تلك الرحلة ليصل إلى باريس، لا لشيء إلا لأنها تحبها جدًّا.

وكان يَوَدُّ هو الذهاب للأندلس، لا لشيء إلا لأنها تُحبها فأحبها، كان يَوَدُّ أن تعرف أنه أحبها كثيرًا لدرجة أنه أحب ما تُحب هي، تمنَّى كثيرًا أن يفعلا ما يحبان معًا.

كانت المدن كثيرة، وبلدانها أحيانًاً متباعدة، كان يحكمهما في الاختيار بعد عَدِّهَا، توافر الباصات والطائرات ووجود أماكن جيدة للإقامة، فقد غدت الإقامة ذات أولوية قصوى لديهما بعد ما حدث في التشيك.

ظلا عدة أيام في مداولات حتى اهتديا إلى خارطة طريق لا تَغفل شيئًا، بها المُدة ومواعيد الطائرات والباصات وعناوين أماكن الإقامة، وقد وضعا ساعتين قبل كل حجز يجب أن يكونا تحركا فيهما باتجاه المطار أو المحطة، حسبا التكلفة وراجعا ميزانيتهما واعتمدا الخطة في النهاية والتي أوصلت صديقه لباريس، ولم يجد هو سبيلاً للأندلس لكنه وصل حتى برشلونة.

ولم يجد هوا سبيلاً لقرطبة وغرناطة فاكتفى ببرشلونة. بدلا من ولم يجد هوا سبيلاً للأندلس فاكتفى ببرشلونة

●●●

obeikan.com

الفصل الثاني عشر

غادرا ألمانيا بعد أن تخلصا من حقائبهما الكبيرة بإيداعها عند زميل لهم في مدينة كولن مع قضاء يوم من أيام القاهرة معه، يحفهم وفاء صداقة الوطن الأم ويُظهر معدنه معهم في تلك الغربة، وتلك المدينة تُقربك من باريس كثيرًا فتوجه معهم صديقهم إلى محطة الباص بعد أن تناولوا الغداء في إحدى محلات الشاورما السورية – التي تغزو المدينة كما يغزوها العرب – وكانا قد نسيا شكل العرب ونسيا الأحاديث العربية بعد الشهر الذي قضياه في أينسيدل التي لم يريا فيها غير الألمان، ولم يسمعا إلا لغتهم الأم، كانا يرونهم من الخامسة إيذانًا ببداية يومهم، ويختفون كليًّا في الثامنة إيذانًا بانتهاء اليوم، يحفها الهدوء، وتُنظم الإشارات كل زُقاق فيها.

كان الليل يسير بهم بين نوم ويقظة، بين سير الأتوبيس في الطرق المعتمة وتوقفه للاستراحة، عبر بهما الأتوبيس بروكسيل ليلاً واستيقظا صباحًا على شمس باريس وعبق هوائها الذي تملؤه رائحة الورد وتزينه كلمة بونجور.

وبعد أن استراحا في الهوستيل، شرعا في التجول في شوارع باريس يتنقلان من مَعْلَمٍ للآخر، تمشيا على نهر السين حتى

وصلا برج إيفل، جلسا أسفله ينظران إليه ويُبعدان من رأسيهما فكرة صعوده نظرًا للزحام الشديد الذي يُغطي درجاته ويتلوى بطوابير أمام بوابته.

رجعا ليلاً يتحسسان شوارع المدينة مع قليلٍ من التخبط، فوجدا أنفسهما يمران بجانب جسر الحب المليء بأقفال العشاق، شرع زميله في التصوير الذي يهواه، وشرع هو في التجول بعينيه مُفَضِّلاً إياهما عن العدسات، يسأل نفسه يا ترى مَن مِن هذه الأقفال لم يلتزموا بوعدهم، هل سيكون له قفل معهم، هل لو لم يرتكب تلك الحماقات لكان وضع قفلاً الآن، يستهويه أن يجتمع اسمه واسمها في كل معلم يقابله، يُقسم أن وعده لنفسه وللآخرين شيئين لن يحنث بهما أبدًا.

أكملا تنقلهما في اليوم التالي وكانت تقابلهم الكثير من الحدائق حتى دخلا قصرًا له حديقة غَنَّاء، به من الورود والأزهار التي رُصَّت في شكل بديع يدفعك للجلوس والنظر إليها، جلس وأمامه صوت هدير الماء من نافورة كبيرة في منتصف القصر يُفكر في نيته التي كان بيتها بإرسال ورد لها من باريس ولكنه تراجع كما يتراجع كثيرًا عن إظهار مشاعره.

ختما زيارتهما باللوفر الذي جذبهما كل أرجائه كما جذبتهما ابتسامة الموناليزا الغامضة التي تَذَكَّر حينها هاشم صديقه عندما

كان يُمسك بكتاب المدرسة - وهم صغار- يُحركه يَمْنَةً ويَسْرَةً ويُردد «ما هي مابتبتسمش أهي» مع ضحكاتهم حينها.

دلتهم مُرشدة فيه على جناح مصر حتى بدون سؤالهما، كأنما رأت قسمات أجدادهم على وجوههم.

غادرا باريس يحملان رقة أهلها وأناقتهم وتقديرهم للطلبة، يأملان في عودة تكون فيها القلوب متجاورة دون شوق وحرمان.

●●●

كانت برشلونة هي المحطة التالية لهما، التي وصلاها بجيوب مفلسة من الكاش، معتمدين على الفيزا التي بحوزة هارون وينتظر موسى وصول الدعم من القاهرة في صورة تحويل عليها.

من كثرة تنقلهم أصبحت المحطات والمطارات بمثابة بيتٍ ثانٍ لهما، قررا المبيت حينها في المطار حتى يحين الصباح ويتجها للهوستيل، فترك موسى صديقه بجانب الحقيبتين الصغيرتين المحمولتين على ظهرهما، وفيهما كل ما يملكان ويهمهما في تلك الرحلة، بالإضافة إلى الكاميرا التي تحمل صورهما وصور الأماكن التي يمران بها.

غيَّر موسى قميصه في حمام المطار بما يلائم النوم على كرسي الاستراحة، غسل أسنانه وخرج عائدًا وقميصه على كتفه

كأنما انتهى لتوه من دش ماء ساخن في حمام منزله، وسط نظرات استغراب من شرطي المطار الذي مر بجانبه ليأخذه من كل ذلك رؤيته لهارون وهو يمر أمامه جريًا في اتجاه الحقائب، وأول ما خطر بباله: كيف يترك الحقائب والكاميرا، يا ويلي لو حدث مكروه للكاميرا ! ولكنه عندما رآه يجري صوب الحقائب أكمل السير كما هو بهدوء، فما يُحيره الآن سيعرفه بعد قليل عندما يصل حده.

وصل فوجد زميله منهكًا في البحث عن شيء ما بداخل حقيبته، فسأله عن ماهيته ولماذا ترك الحقائب، ليرد عليه وهو مستمرًّا في بحثه:» مش لاقي المحفظة اللي فيها كارت الفيزا وده آخر أمل لينا «

فأخبره ضاحكًا وهو يهم بالجلوس: « يا راجل خضتني، اهدى اهدى، هي خلاص خربت «

فهما اثنان خرجا من بلدهما تائهين بعد عناء، ثم كلما ضاقت بهما صدورهما قررا أن يتوها وأن يُطلقا العنان لأقدامهما حتى تذهب بهما إلى المجهول، يبحثان عما يسد شغفهما ويملأ روحهما، يستمران بالتحرك عسى أن يتعثرا بكنزٍ على طريقهما، فماذا يضيرهما لو ضاعت كل سُبل العيش، هل تُهمهما الحياة أصلاً!

كان موسى على يقين رغم كل ذلك أن هارون سيجد المحفظة فهو لم يعتد منه إلا المحافظة على أشيائه جيدًا وحرصه عليها، لذلك ما لبث أن وجدها بعد البحث قليلاً في مكان غير الذي اعتاد على وضعها فيه، وكان قد شرع في الجري لأول مكان حطت فيه أقدامهما في المطار للبحث عنها ظنًّا منه أنها قد تكون سقطت هنالك.

انتهى هذا سريعًا ليهدأ كلٌّ منهما أكثر ويغطا في نوم عميق حتى استيقظا على أصوات المسافرين بجانبهم وأصوات النداء على أرقام الطائرات التي تتردد في المطار دائمًا ويخفت نداؤها ليلاً لكنها تعود بكثرة صباحًا.

بدأ في التوجه لمكان إقامتهما قُرب شاطئ بادلونا الذي يُطل على البحر الأبيض المتوسط، مرًّا بتجمعات ومهرجانات وحفلات، هالهما مدى استمتاع هذا الشعب بحياته، قمة الروقان والسعادة، فاجأهما الجو الحار والشمس المُشرقة بوضوح بعد أن كان يَندر رؤيتها في ألمانيا، فقد كانوا ينزلون بالملابس الخفيفة وهم يرون ضوء الشمس لكن معهم الجاكت؛ لأنها ستختفي بعد ربع الساعة خلف جو ملبد بالغيوم وهواء بارد حتى يحل الظلام، وفي أيديهم الشماسي لأنها ستُمطر، فالسماء تُسقط القطرات كل حين، وقد يستمر هطول الأمطار طويلاً.

نزل هو البحر على الرغم من امتناع صديقه، وخرج ليجلس على الشاطئ الذي سحره بجماله، وفي الليل تمشيا في شوارع تلك البلدة الصغيرة، وكان موسى يشعر أن الفتور يحفهم قليلاً، فروح المغامرة تلهيهم وتشغلهما عن داخلهما، لكن ما أن تنتهي ويذهب تأثيرها حتى يعود كلاهما لصمته وشروده، ويسيران صامتين بجانب بعضهما لا يقطع هذا الصمت إلا بعض الأحاديث البسيطة والضحكات والنقاشات حول أي الطرق يسلكان، ثم يعودان للصمت مرة أخرى، ويسيران في انتظار المغامرة القادمة لا يباليان بما تحويه من مخاطر.

كانت مدة إقامتهما في برشلونة أطول من بقية المدن التي مرا بها، فقد كانت تستحق فعلاً، فكر في الذهاب لقرطبة خلال تلك المدة وبطرق تنقل داخلية لكنه لم يستطع أن يجد الحجز الذي يوصله إليها ويعود به في الموعد المناسب، وفي اليوم الذي يسبق المغادرة قررا التحرك باتجاه الكنيسة التي تقع أعلى جبل Tibidabo وهو الجبل الذي يطل على المدينة بأكملها، ولكثرة خلافهما عندما يذهب بهما رأي أحدهما للوجهة الخطأ، اتفقا على أن من يتولَّى القيادة يسير والآخر بجانبه ولو مرا خلال النار أو ألقى بنفسه في نهر، لا يناقشه في شيء إلا إذا طلب الرأي أو المساعدة ولا يُبدي تذمره أو اعتراضه.

أعد موسى أسماء محطات المترو التي سيُبدلان بها حتى يصلا للـFunicular الذي سيصعد بهما لأعلى الجبل، وانتهت تلك الخطة بمفاجأة وهي أن المترو لم يتوقف عند المحطة التي سيركبان عندها الـ Funicular وتوقف في المحطة التالية لها، فنزلا عندها، وأخبر صديقه أن لا حل عنده إلا العودة في الاتجاه العائد ويستفهمان لماذا لم يتوقف المترو، فنظر صديقه في هاتفه على خرائط جوجل، تمعن قليلاً ثم قال: « الكنيسة مش بعيد عننا كتير، إحنا على الجبل فعليًّا»

موسى: «طالما أنت ستقود، أنا وراك»

هارون: «طب يلا بينا»

صعدا على درجات خراسانية كبيرة كأنها سلالم في open park يتحركان معها يَمْنَةً ويَسْرَةً بين الأشجار، وصادفا أثناء سيرهما رجل يعمل بجانب كوخ فسألاه عن المعبد فأخبرهم أن يكملوا في الاتجاه الذي يسيران فيه، وسارا على كلام صديقه الواهم بأنه لا يبعد عنهم كثيرًا، حتى وصلا إلى طريق أسفلت تسلكه السيارات التي تتجه ناحية قمة الجبل ،وهما يتجولان بأعينهما حتى وجدا في ركن على يسارهما حاجز على مدخل ترابي مغلقًا وعليه يافطة تحذر من الدخول وتمنعه، فعبرا الحاجز بكل هدوء وصديقه ناظرًا لخرائطه يخبره أن هناك وصلة لا تظهر بوضوح على الخريطة، وقد يكون الطريق مقطوع عندها ولكنهما أكملا...

ظل الطريق يدور بهما حلزونيًّا وسط الجبل وحينًا يرون المعبد بعيدًا وحينًا يختفي عن أنظارهم وراء الأشجار التي تحف الطريق وترتفع عنه مترًا، وبينما هم كذلك وموسى يتقدم هارون بعدة خطوات وقُرب إحدى اللفات الحلزونية، وهما يَهُمَّان بالدوران معها إذ يُفاجآن بخنزير بري هابطٌ من أعلى الطريق أمامه كالذي شاهداه في المسلسل الكرتوني الشهير تيمون وبومبا، توقفا ينظران لبعضهما هو وبومبا، ويبدو أن كلاًّ منهما تفاجأ بالآخر، وموسى لم يُوضع في مثل تلك المواقف من قبل فتَسَمَّر مكانه، ليهبط خنزير آخر. ويستفيق من هول الصدمة على صوت هارون وهو يصرخ فيه ليدفعه للصعود بجانب الأشجار، ويحذره من أنها آكلة للحوم، ليصبح مرتفعًا عن الطريق كما فعل هو من الوهلة الأولى، وعندما غيَّر موقعه، استدار بومبا نحوه يتبادل النظرات معه وسط طلب هارون بتصويره فينظر لبومبا الذي كان مشغولاً بالبحث عن سبيل إليه وينظر للكاميرا ويسأل نفسه: « حتى لو أخرجتها من شنطتها والتقطت الصورة، هل سيتاح لي الوقت لإعادتها لمكانها « كان بومبا يستدير حول زاوية الطريق المرتفعة فالتقط الصورة وأعادها للشنطة وفي نفس الوقت كان بومبا قد وجد سبيلاً إليه، فأمسك موسى الحصى وظل يرميه بها حتى رجع أدراجه وهبط وسط الأشجار لاحقًا بصديقه الذي كان خلفه. وصعدا هما وسط الأشجار أيضًا متجنبين الطريق

المُعبد، يحملان بقايا أشجار مكسورة تحسبًا لهجمات أخرى في تلك المنطقة المجهولة التي يسيران بها، أكملا وهما يراقبان كل شيء بمقلتين متسعتين والتفاتة لأقل صوت يصدر بقربهما، يحلفان أن لا عودة من تلك الطريق اليوم مُجَدَّدًا إذا لم يجدا وسيلة أخرى للنزول، فسيكون حينها المبيت فوق الجبل عند المعبد هو الحل كما حدث في أينسيدل، سيشعلان النار ويجلسان حولها حتى الصباح، فماذا ينفعهما إذا اُضطرا للعودة من نفس الطريق وضلا سبيلهما مع حلول الظلام وفي الكثير من الأحيان تُصبح التكنولوجيا بلا فائدة.

مع كل لحظة يمران فيها بالمغامرة والخوف

يسأل نفسه: « بما يفكر أهلهم الآن، هل يشعرون بهم، هل تهمس لهم نفوسهم أن أبناءهم في خطر الآن؟

هل يشعر بهم أحبتهم؟

تُرى ماذا يفعل أخاه الآن؟

تُرى هل سيعودان إلى ذويهم سالمين بعد كل هذا وستمر كل المغامرات بسلام؟

وصلا إلى قمة الجبل وكانت المنطقة حول المعبد الذي يسمى باسم الجبل تبدو كمنتجع، تجولا وتناولا غداءهما وهم ينظران للشاطئ الذي يقيمان عنده من أعلى نقطة في المدينة.

وقُرب الغروب نزلاً في الFunicular الذي مر بهما وسط أشجار الغابة من أعلى الجبل حتى محطة المترو في الأسفل، ولم يعرفا لماذا لم يتوقف فيها المترو صباحًا!

●●●

لم يكادا يستقران في مدينة حتى تدق نقوس الرحيل، يتنقلان كالرحالة، لم يصلا للموطن الذي يستقران به وتستقر فيه نفوسهما بعد.

لقد أحبا برشلونة كثيرًا، كانا يغادرانها ليلاً منسحبين من شارع لآخر كأنما هم أفراد جيش مُجبرين على مغادرة مدينة احتلاها لفترة قصيرة، واحتلت هي مكانة في قلبيهما، كان وسط المدينة مليئًا بمسارح الهواة في الشارع والتي لا تفهم من كلامهم فيها شيئًا ولكنك تُعجب بشغفهم البادي عليهم في الأداء، قابلتهم حفلة مماثلة لتلك التي تُقام في أعظم دور الأوبرا ولكنها في أحد الميادين والمقاعد فيها هي الأسفلت، كان الأوركسترا يتبارون في إظهار أفضل ما لديهم، كان الوقت يقترب من الثانية عشرة وهما جالسين على الأرض مستمتعين بالألحان التي تُعزف كما يستمع الجميع حولهم. كلما هَمَّا بالوقوف للرحيل، تبدأ ألحان وتأسرهم فيؤجلان الموعد، حتى دقت الثانية عشرة، فأخبر موسى صديقه: « يجب أن نرحل الآن»

هـارون: طيـب وهُـدى، مبصتيـش علـى الماسـنجر وشـوفت هنقابلهـا فـين؟

موسى: «لأ مفيش وقت ومفيش نت عشان نتفق معاها»

وكانـت هـدى صديقتهـم في الجامعـة والتـي تمـلأ الجـو حولهـا طيبـة برسـم الابتسـامة علـى وجـوه الجميـع وبـث روح المحبـة فيهـم، قـد تصـادف وجودهـا في برشـلونة حينهـا وكانـت قـد تحدثـت عـن مقابلتهـم فأخبراهـا بمكانهمـا، ولـم يُمهلهـم الـواي فـاي الـذي كانـا يتسـولانه أحيانًـا بجانـب المحـلات الشـهيرة لكـي تُخبرهـم بمكانهـا وعـن كيفيـة تلاقيهـم.

تحـركا إلـى محطـة المترو ينويـان اسـتقلال الخـط المتجـه للمطـار مباشـرة، فأخبرهـم الشـرطي أن المتـرو قـد توقـف، فخرجـا يُسـرعان السـير في الشـارع يسـألان عـن موقـف الحافـلات التـي تتجـه للمطـار، فوجـدا آخـر حافلـة متجهًـا للمطـار تلـك الليلـة، فارتداهـا سـريعًا، يجادلـه هـارون بعـد أن وضعـا أقدامهمـا فيهـا أنـه مـازال الوقـت مبكـرًا علـى الطائـرة فهـي سـتتحرك في الخامسـة صباحًـا ليـردف موسـى: «ولـو فوتنـا ده وملقنـاش حاجـة نـروح بيهـا المطـار بعـد كـده، وكمـان إحنـا عارفـين نفسـينا، علـى طـول نتأخـر لآخـر لحظـة ونوصـل المطـار بصعوبـة»

هـارون: «طيب»

وصلا المطار، وألقيا بالحقيبتين في أحد الأركان وناما بجانبهما بعد أن تفقدا كراسي المطار ووجداها تضج بالنائمين والمسافرين.

في الفجر كانا يمران من بوابات التفتيش، ليجدا صفًّا طويلاً يقف بجانب الطائرة وهما في منتصفه منتظرين نزول القادمين من الجانب الآخر كأنما يستقلان أتوبيس نقل عام، وكانت تلك الطائرة تتبع شركة طيران بأسعار مخفضة تُدعى Raynair، وقد فرقتهما التذاكر عن بعضهما في أماكن الجلوس، فجلس هارون في المقدمة وجلس هو في المؤخرة بالكاميرا على قدميه، ورأسه مستندًا على الكرسي الذي أمامه، غط في النوم ولم يستيقظ إلا على اهتزازة قوية من الطائرة أثناء هبوطها، كانت بمثابة اعوجاجة خاطفة بالمسار كادت لتودي بحياة الركاب، نزلا من الطائرة، يسأله هارون: هل شعرت بالاهتزازة؟ فيرد عليه بأنه شعر أنها النهاية، وسط أصوات ضحكاتهم على ما يمران به.

●●●

الفصل الثالث عشر

استقبلا روما بروح تتجدد مع كل انتقالة، مع كل أتوبيس يتحرك ويقف، مع كل طائرة تطير وتحط، مع كل إشراقة شمس عليهما وهم على أرض جديدة، يعشقان كل جديد يحمل بين طياته لمعان الأصالة.

بعد عدة استفسارات توصلا للأتوبيس الذي سيُقلهما حتى الخيمة التي سيقيمان بها في كومباوند الخيم الذي حجزاه؛ بعد أن لم يجدا غيره شاغرًا في تلك الفترة، وكان يوم وصولهما هو يوم عرفة وهما صائمين وكان الجو باردًا وممطرًا.

وبعد أن بحثا عن خيمتهما وسط عشرات الخيام، وضعا حقائبهما وتفقدا أماكن الاستحمام التي كانت تقع منتصف كل مجموعة كبيرة من الخيام، ذهبا إلى مطعم الكومباوند ليحجزا بيتزا، فطبيعي أن تكون تلك أول وجبة لهما في بلد البيتزا والمعكرونة، ليسألهما النادل عن منشأهما، فيخبراه أنها مصر، وينطلق لسانه مباشرة بإحدى كلمات السُباب الشعبية والتي يتبارى المصريين في تعليمها للأجانب في مصر وخارجها، ليضحكا ويبدآ في تناول إفطارهما مع حلول وقت المغرب بدون سماع الأذان الذي اشتاقا له.

كانت الليلة باردة، يجد الهواء طريقه إلى داخل الخيمة وسط نقرات قطرات المطر المستمرة طوال الليل.

استيقظا متأخرين كالعادة يحاولان اللحاق بصلاة العيد ولكن الوقت لم يُمهلهما الوصول للجامع الكبير بروما، وفي أثناء تواجدهما بالأتوبيس وجدا شخصًا يتبع إحدى الأقليات الإسلامية، يرتدي الجلباب، فسألاه عن أقرب مكان للصلاة، فأخبرهما أن يتبعاه، ليجدا نفسيهما وسط مجموعة كبيرة من الجنسيات الغير عربية يؤدون الصلاة وسط نظرات اندهاش على وجه الإيطاليين الذين يُطلون عليهم من شرفات منازلهم، يتساءلون ماذا يفعل هؤلاء القوم ذوو الملابس البيضاء!

●●●

تُشبه تلك البلد وطنه كثيرًا، فهي من الأمم ذوات الحضارة الضاربة في جذور التاريخ، ولكن وصل بهم الزمن إلى أذيال الأمم في التحضر والمعاملة، كان الإيطاليون يشبهون المصريين كثيرًا في حياتهم اليومية، يعرفون كثيرًا عن مصر ويحفظون بعضًا من كلام المصريين عن ظهر قلب، وعندما يعلم أحدهم أن الزائر من مصر، يسرد عليه قصة مضحكة له مع مصري في إحدى المناطق السياحية ويتفاخر بمعرفته بطبائع المصريين وكيفية معاملتهم.

●●●

اشتاقا لألمانيا كثيرًا، اشتاقا للنظام الصارم، لالتزام أهلها بأدق القوانين والآداب، لجوها المُرتب كأنه سطور في كتاب طبي، اشتاقا لما تحويه بيئتها من جمال وهدوء، اشتاقا لها أكثر من بلدهما مصر، فالقلب يعشق كل جميل.

زارا معالم روما وتمشيا في شوارعها المليئة بالآثار في بعض المناطق، وصليا الجمعة في مسجدها الكبير الذي رأيا فيه العرب وسمعا فيه العربية بعد طول غياب، وكان الطعام منخفض الثمن إلى حد ما فأكلا كثيرًا في تلك البلد.

تجولا في جنبات الكولوسيوم، ذلك المدرج الروماني العملاق الذي يشهد على عظمة من شيدوه لكنه بَقِيَ وحيدًا دونهم، تتجول فيه الأجيال الجديدة التي لا تجد شيئًا يُبقيها متمسكة بالحياة أحيانًا غير التغني بأمجاد القدماء كما يفعلون في بلده الأم.

جاءتهم مكالمة من صديقهم في كولن، يسألهم عن موعد عودتهم بعد أن توقف ذووهم عن ذلك السؤال منذ فترة، يخبرهم أنه ذاهب مع أسرته لقضاء عطلتهم في بلجيكا، وأنه سيترك لهم مفتاح الشقة في علبة السكر في مطبخ السكن حتى يتسنى لهم أخذ حقائبهم حين عودتهم، وبعث لهم برقم صديقه السوري الذي سيعاونهم حين عودتهم إلى المدينة التي لا يذكران منها الكثير.

كانت الخطوة التالية بعد أكل البيتزا هي شراء نظارة، فإيطاليا تشتهر بهذين الشيئين كما تشتهر بالكثير، وهما يتجولان في مول يوروما كان أحد محلات النظارات يضع ملصقًا يشير لعروض على الشراء، دخلا وبعد تفحص العديد من النظارات وُفِّقَ موسى لنظارة أعجبته أول ما جربها وشعر أنها تلائمه، وهو الذي يتعب كثيرًا حتى يجد ما يوافق هواه، وكانت خارج العرض ولكنه آثر شراءها، وأصر هارون على إيجاد مثلها بعد أن أخبرتهم بائعة المحل أنها آخر قطعة لديها من هذا النوع، فذهبا لعدة محلات بعدها يبحثان عنها ولكن لا فائدة. وكان اليوم التالي هو يوم الرحيل، فرتَّب هارون معه على الذهاب للبحث عنها في شارع بجوار الفاتيكان به العديد من محلات النظارات علَّهم يجدوها.

كان موعد الطائرة قبل الأخيرة سيحين في الثانية ظهرًا وكانت تلك أهم طائرة، فهي وسيلتهم الوحيدة للعودة لألمانيا قبل انتهاء التأشيرة بعدة أيام وهي الأعلى سعرًا بين الرحلات التي حجزوها، فيكفي أنها تدعى Germanwings، كانت ساعته تقترب من الثانية عشرة، ولم يوفقا في إيجادها بعد، فأخبر صديقه بوجوب التوقف عن البحث والتوجه صوب المطار فورًا، فوافقه.

عرض موسى عليه أنه أمامهما سبيلان للوصول للمطار، إما استقلال المترو حتى منتصف الخط (ب) حيث تقع محطة

بيراميدا وركوب القطار منها حتى المطار مباشرة، أو الوصول بالمترو قُرب نهاية الخط حتى محطة EUR Magliana التي جاءا منها أول ما نزلا البلد، ويركبان منها الحافلة للمطار والتي تأخذ وقتًا أطول، فسائقو الحافلات في العالم كلهم آتين من منبع واحد، يُشبهون بعضهم كثيرًا، فقد دارت بهما كثيرًا بين أحياء روما أول مرة وهم لا يملكان الوقت لهذا الآن.

اعتمدا الخطة الأولى بينهما، ووصلا المحطة المنشودة، وتحركا صوب القطار وكانا يتوقفان أمام شريط القطار ولحُسن حظهما كانت تفصلهما أربع دقائق عن وصول القطار، لا يوجد رُقِي أكثر من هذا يُمكن للحظ أن يُعاملهما به، وفي تلك الأثناء التفت هارون صوب أحد المنتظرين بجانبهم، يسأله ما إذا كان كارت المترو الذي بحوزتهما يسمح بركوب القطار، وهو الذي يشترياه عند وصولهما كل مدينة بدلاً من شراء تذاكر منفردة فتنخفض التكلفة. ويُسمح لهما بركوب العديد من وسائل المواصلات بأنواعها المختلفة وهو ما يكون مثبتًا على الكارت، ليرد الرجل بأنه ليست لديه فكرة ولكنه أظهر التذكرة التي بحوزته لهارون والتي شكلها يختلف كثيرًا فدب الشك في نفسه والتفت لموسى بقوله أنه يتوجب عليهما استقلال الحافلة، فهما لا يتحملان أن لا يقبل المحصل الكارت ويوقع عليهما الغرامة، فرفض موسى ذلك تمامًا، فلم يكن هناك وقت لسماع عدة أصوات، يكفي صوت واحد أحيانًا، فأكمل

هـارون بسـؤاله مـا إذا كان سـيدفع الغرامـة لكليهمـا إذا أوقفهمـا المحصـل؟ فاسـتفزَّ ذلـك موسـى فهـو لا يحـب التـردد والتشـكيك في الأوقـات الحاسـمة، ليـردف بقولـه أنـه لـن يدفـع غرامـات أحـد، وأشـار إليـه أنـه إذا كان خائفًا فلينـزل إلـى المترو ويُكمـل لآخـر محطة ويركـب الحافلـة ويلاقيـه في المطـار.

صمـت صديقـه وتحـرك مبتعـدًا قليـلاً ثـم توقـف وعـاد ليقـف بجانبـه وهـو مـازال علـى سـكوته.

أتـى القطـار وسـبقه هـارون وابتعـد ليركـب في العربـة التاليـة للتـي جلـس فيهـا موسـى، يعلـم أنـه احتـد عليـه في الـكلام، لكنـه يكـره أن يُشـكك أحـد في كلامـه، يكـره أن يهـدده أحـد، لأنـه لا إراديًّا سيتسـلل ذلـك الشـك والخـوف لنفسـه وهـو لا يرضـى بذلـك، جـاء المحصـل للكنبـة المجـاورة لـه، فأخـرج الراكـب كارت لـم يتبـين ملامحـه مـن بعيـد ولكـن المحصـل لـم يقبلـه ونـادى علـى شـرطي القطـار ليوقـع عليـه الغرامـة، فثـاوره الشـك وتحركـت أنامـله لتمسـك بحقيبتـه وسـط نظـرة ارتيـاب مـن الراكـب الـذي يجلـس أمامـه، لاعنًـا تلـك المـرات التـي يتذكـر فيهـا صديقـه المحصـل فيظهـر لهمـا بعدهـا مباشـرة، فكـر في دخـول الحمـام الـذي يقـع خلفـه في حركـة خاطفـة حتـى عبـور المفتـش مـن تلـك العربـة لكنـه تذكـر هـارون القابـع في العربـة الأخـرى، ومـاذا يمكـن أن يحـدث معـه فآثـر أن يحـدث لهمـا مـا يحـدث وهمـا

معًا حتى مع خلافهما فهذا ما اعتادا عليه وزاد عليه هارون في تلك الصفة.

أتاه المحصل ليأخذه من تلك الأفكار، فأخرج محفظته بكل ثبات وأخرج منها الكارت، وأعطاه للمحصل بكل ثقة، الذي بدوره تفحصه وأعاده إليه وانتقل للراكب التالي، فلم يتمالك نفسه من الفرحة وترك حقيبته وذهب سريعًا لهارون يخبره حتى يهدأ باله ولا يستمر على قلقه ثم عاد لمقعده يفكر كيف سيصالح زميله عند وصولهم ألمانيا.

وصلا المطار وعبرا ببوابتي تحقق من التأشيرة متلاصقتين، فتعجب الضابطان كيف ينتقلان لألمانيا الآن ويتبقى في تأشيرتهما ثلاثة أيام فقط، وسألاهما إذا كانا يملكان تذاكر سفر إلى مصر محجوزة مسبقًا، فردا في نفس الوقت على الشرطيين المتجاورين... نعم.

جلسا في الطائرة بجانب بعضهما البعض ولكن بنفوس متباعدة، لم ينبسا ببنت شفة طول الرحلة، حتى وصلت الطائرة مطار كولن، فخرج كلٌّ منهما من مخرج مختلف، وتبعه موسى بدون كلام، ينتظر وقوفه ليصالحه، لكنه لم يعطه فرصة، وعندما ملَّ من ذلك تركه لحاله وذهب مبتعدًا حتى وصل إلى موقف الحافلات، وجلس على المقعد مقابل الحافلة الذي تتوقف أمامه

ويرتادها الناس استعدادًا للمغادرة والتي من المفترض أن يرتاداها معًا. لحسن الحظ استطاع التقاط إشارة واي فاي، فوضع هاتفه بجانبه منتظرًا لرسالة صديقه فهارون لا يعلم أي حافلة سيركبون ولا يعلم من سيرشدهم ولا حتى يحفظ موقع السكن، وفي نفس الوقت لا يملك موسى أي كاش فالفلوس التي بحوزته تقبع في فيزا زميله، فمصيرهما مرتبطًا لدرجة لا يتخيلاها، وأثناء انتظاره كان يجلس بجانبه عجوزًا ألمانيًّا، يلتفت ناحيته ويسأله بإنجليزية ضعيفة عن موطنه، ليرد موسى بأنها مصر، فيُكمل الرجل باستفهام عن سبب وجود موسى هل هي الحرب في بلده؟ يرد موسى بالنفي ويُعلل وجوده بحضور كورس لغة وأجازة وسيعود لموطنه، يختم العجوز كلامه بأنه لن يُقاتل موسى ولا يؤذيه بأي طريقة، ولكن له طلبٌ واحدٌ وهو أن يحترم موسى قوانين البلد وعاداته، فما يفعله الكثير من المغتربين يضايقه، لم تمر ربع الساعة حتى سمع صوت رسالة، فأخبر هارون أن يتبع العلامات المعلقة في المطار والتي ستسلك به عدة مسارات حتى يصل عنده في موقف الحافلات.

عندما وصل أخبره موسى أن يدفع التذاكر لهما بالكارت، ففعل.

أخذتهما الحافلة لمحطة القطار، جلسا بجوار بعضهما كلٌّ منهما مُعتمدًا على أن الآخر يعرف أين يتجه بهما ذلك الخط وفي أي محطة سيُبدلون ليصلا للمحطة المنشودة، فلم يختارا قائدًا هذه المرة وعندما شعر موسى أن الوقت طال بهما، قام لينظر في الخريطة التي تتقاطع فيها الخطوط بطريقة معقدة، وهو يسير معها بأنامله (إحنا المفروض ننزل...هنا) يقول لهارون وفي نفس اللحظة كان اسمها يتردد في السماعات وفتحت الأبواب لها، إيذانًا بموعد التبديل، فتحركا سريعًا يجرَّان أشياءهما وبعد نزولهما تأكدا أن لا شيء ينقصهما.

وصلا الشقة وعندما أغلق موسى الباب التفت لهارون وقال له: ها بقى، في إيه؟

هارون: مفيش حاجة، بس أنا معدتش هتكلم معاك تاني، طالما أنت كل شوية بتتعصب ومش قابل نقاش.

موسى: أنا عارف إني غلطت، بس إحنا كنا في موقف عايز قرار واحد، وأنت عارف إني بَكْره أسلوب التشكيك.

هارون: طيب خلاص، حصل خير، يلا بينا نلحق نجهز الشنط عشان نلحق أتوبيس بالليل لفرانكفورت.

موسى: لا مش هنلحق، وهنستعجل في لم الحاجة وهننسى حاجات أكيد، أنا هكلم محمد أستأذنه إننا نبيت هنا النهاردة وناخد باص بكرة الظهر، نكون ظبطنا الشنط براحتنا.

هارون: كده بقى أنزل أدور على النظارة.

موسى: طب استنى هنزل معاك.

كان هارون يعشق الشراء والتنقل بين المحلات بالإضافة لإصراره الذي مازال مستمرًّا لإيجاد نظارة متطابقة، ولم يكن موسى ليتركه ينزل منفردًا في مدينة لم يسيرا فيها إلا مرة واحدة من قبل وبدون وسيلة تواصل سريعة بينهما، فهما معًا في كل ذلك من البداية حتى النهاية، وأحلا ما بهما أنهما يعبران خلافاتهما سريعًا.

●●●

في اليوم التالي وصلا مطار فرانكفورت، دخلا المطار وأراد زميله النزول للمدينة لشراء بعض الهدايا، فأخبره أن يذهب وسيجلس هو بالمطار يُكمل قراءة الكتاب الذي بين يديه حتى يحين موعد الطائرة التي مازال على موعدها ساعات، فهو اكتفى من الترحال ويَعُد الساعات الآن للعودة لوطنه الأم، لأهله، للطريق الذي يمر من خلاله بمنزل حبيبته، لأصدقائه.

فلكم كان يتعجب كثيرًا من الربط بين المحبوبة والوطن، وبين العشق والغربة، ولكنه عرف الإجابة، فالوطن كالمحبوبة نُحبها بلا أسباب، نرى عيوبها ولكن نستمر في حبها فالقلب لا يُوجه، عندما نتغرب عن الوطن كابتعادنا عن المحبوبة لأسباب خارج إرادتنا، قد نعيش سعداء، نرتبط بأشخاص جدد ولكن تبقى معنا الذكرى واللهفة والفرحة لأخبار الوطن السعيدة والحزن لحزنه، ففي النهاية لا يزول الشوق لهما.

بعد ذهاب هارون بقليل، شعر بحاجته لدخول الحمام، احتار في أمر الحقائب التي بحوزته، فقرر أخذ الحقيبتين الصغيرتين معه لما يحويان من أوراقهما وأجهزتهما، ذهب للحمام، وعندما فرغ كان عائدًا يسمع صوت تكرار نداءات سماعات المطار ولكنه لا يُلقي بالاً لماهية النداء، فمازال الوقت باكرًا على موعد طائرتهم حتى يخصهم نداء ما.

وصل للمنطقة التي كان يجلس بها فوجدها محاطة بشرائط الشرطة الحمراء، وتخلوا من المسافرين والمطعم على يساره خاليًا، ظن أنه تم إفراغهم لشيء هام، فتوجه صوب الضابط المتوقف يطلب منه بكل براءة أنه يريد حقائبه تلك التي تقبع في منتصف قاعة الانتظار، فبادله الضابط سؤالاً سريعا: هوا أنت صاحبها؟

موسى: «أيوة»

الضابط: «باسبورك»

موسى: «تفضل»

نظر الضابط في جوازه ثم أبلغ عن رقمه من خلال اللاسلكي، ثم التفت ناحية موسى.

الضابط: لماذا تركت الحقائب؟

موسى: كنت في الحمام.

الضابط: هل هناك أحد معك؟

موسى: زميلي بس وهو نزل وسط المدينة.

الضابط: من فضلك لا تترك الحقائب مرة أخرى بدون أحد مسئول عنها؛ لأننا اضطرينا لإخلاء القاعة للاشتباه في تلك الشنط المجهولة.

أومأ موسى بما يعني تفهمه واستعاد باسبوره ، وفي أثناء مروره بخطوات ثابتة نحو الحقائب انتبه حينها فقط للنداء الذي يتردد في سماعات المطار، فمازالت تُكرر اسمه وتدعوه للتوجه إلى الحقائب، فلم يكن يوجد غير اسمه عليها، وعندما عاد هارون أخبره بما حدث، فلم يكونا ليغادرا تلك البلاد قبل أن يضعا آخر علامة لهما.

عـادا لمصـر لا يَنشُـدان إلا الأكل بِنَهـم والاسـتقرار بعـد كل هـذا الترحـال.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع عشر

ذهب للجامعة لتسجيل مواد آخر عام دراسي بعد أن مكث في منزله أيام يستريح من عناء السفر، ويؤخر عناء المواجهة مع العامة الذين يفعلون كل شيء يزيد من شقائهم وعنائهم وتأتي الحكومات لتسمح بذلك وتُدعمه، وبينما ينزل من على درج الكلية متجهًا ناحية مبني شئون الطلبة يري من هو في الساحة أمام الكلية ويروه، إذ يلمحها قادمة من بعيد مع ريم، غيَّر مساره المعتاد وغيَّرت هي المسار التي توقعت سيره فيه عندما لمحته، فتقابلا، تتقاطع طُرقهما رَغْمًا عنهما، لم يُؤثر ظهورها فيه بشيء، فهو تجهز لذلك على مدار العام المتبقي داخل أسوار الجامعة، وقد دعم جبهته الداخلية بكل ما أوتي من قوة، ولكن مع بداية الدراسة وكثرة تقاطع طُرق اللقاء، بدأ البناء يتصدع.

فعندما تاه في الحاضر بعدها ولم يعد يعرف من هو، فتش في دفاتره القديمة، ذكرياته، علَّه يجد نفسه الحقيقية والتي تاه عنها لسنين وطغى عليها النسيان، فسنين الثانوية مع المراهقة جريمة في حق الأجيال، يفقدون فيهم جزءًا كبيرًا من شخصياتهم، لو يُسجل الآباء كل ما نفعله من يوم وعينا على الدنيا حتى تلك المرحلة، هواياتنا، قراءاتنا، طموحاتنا وأهدافنا التي نقولها

بدون وعي مننا وتكون انعكاسًا صافيًا لما بداخلنا، يضحك عليها الأهل وهم يسمعوها منا بحروف لم نُجيدها، وجُمل ركيكة لكنها تساعدنا كثيرًا عندما نتوه ونتمنى تَذكر ما كنا نحب، فحين نعرف ما كنا نفعله نعود إليه بنفس الشغف، نتمسك به، ونعبر به كل ما يحاول إعاقتنا، وإذا لم نعرفه ضِعنا.

●●●

بدأ العام وهو واضعًا هدفه الأول بالعمل بعيدًا عن كل ما يخص الجميع، يسمع همسات من هنا وهناك وحكايات، لكنه يمضي في طريقه منفردًا، اندمج في العمل وزاد احتكاكه مع أفراد من طبقات مختلفة من المجتمع بداية من عيادة الدكتور الكبير- بلغة المصريين - التي يتدرب بها وحتى عيادة الجامعة والتي تغلبها الطبقة الكادحة، وجد أن المرضى يلجئون للمسكنات في علاج أي مرض يواجههم قبل التفكير في سببه، ويتخذون ذلك بديلاً دائمًا أو لفترة طويلة دون البحث عن السبب وعندما لا يجدون من ذلك طائلاً يشترطون تجنب الألم تمامًا قبل بدء العلاج، ويتذمرون عند ظهور أقل أعراض الألم والتي هي في حدود الطبيعي. يجد معظم تبريرات المرضى أن أحدهم يخاف من أطباء الأسنان عامة، والآخر يخاف حقنة التخدير، وهي تخشى الصوت المنبعث أثناء العلاج والذي يُشبه الشنيور على

حد تعبيرهم، وأخيرًا الذي يُخبرك عن تجربته السابقة مع أحد أطباء الأسنان وعلى إثرها قرر غلق هذا الباب نهائيًّا من حياته والعيش هكذا بالبركة. لا شك أن العلم تطور كثيرًا في كل المجالات وخاصة طب الأسنان، ولكن حالة التردي وفي مقابلها الجهل التي استشرت في مجتمعنا تلقي بظلالها على كل المجالات ومنها الطب عامة وطب الأسنان خاصة.

قد يخطئ الطبيب وقد يخطئ المريض، لكن مسئولية تثقيف المريض تقع في المقام الأول على عاتق الطبيب في إطار عيادته أو الوحدة أو المستشفى التي يعمل بها، أما مسئولية تثقيف الطبيب تقع على عاتق الدولة، يعاني المريض الأمرين حتى يقع في أيدي طبيب محترف ولديه ضمير وحتى نصل إلى ذلك الشخص يرى أنه يجب النظر في المنظومة الطبية من أول شروط الطالب الذي سيتم قبوله لدراسة الطب حتى سلم الترقي ومنظومة الأبحاث، فهو يرى الكثير من أساتذة الطب الأفذاذ ويرى الطلبة الطموحين ومثل ذلك في كل نواحي الحياة، لكن المنظومة التي تسمح بانتقال المعرفة والخبرة والأهم من ذلك تطوير تلك المعرفة لازالت مفقودة. ناهيك عن الظروف العامة المحيطة بكل الطلبة. ففي النهاية يجب أن تُوقف الدولة المسكنات وتبدأ في العلاج الصحيح، وبقوة موزونة تراعي جميع الفئات حتى يثق العامة في جدية ذلك، ولتطمئن الدولة أن الألم في سبيل العلاج السليم والتغيير المرجو

للأفضل هَيِّن، لكن لو استمر العلاج خاطئ ووهمي فسوف يظل الشعب على مسكناته خائفًا من التغيير وسيدافع المصري عن تلك المسكنات بقوة.

دخل دائرة الصمت التام في مواجهة ما يدور حوله لا يُطل منها إلا على أحاديث عائلته وثرثرة أصدقائه، أصبح يُفضل السير كثيرًا بدون نظارته حتى لا يرى الأشياء بوضوح، وكثيرًا ما يغلب الصوت بداخله على ما يدور حوله، فلا يسمع من الآخرين إلا القليل، لم يعد يعلق بذاكرته إلا ما يستحق الذكر، هي ليست بدائرة فرح ولا حزن، هي دائرة الهدوء والسكينة التي اهتدى إليها بعد الكثير والكثير، يريد من كل ذلك أن يعبرها سريعًا كما يعبر مراحل حياته، لكن توقف التاريخ أمامها طويلاً وتوقف هو.

« يشيح عينيه بعيدًا عنها

لكن قلبه ينبض تجاهها

يجري في طريقه يتحاشاها

وعينه تُخبره أنها تتوحشها

يقول: أفتح بابي من جديد.

ليرد عقل: وتتوه في عينيها من تاني»

لم يكن يذهب للجامعة إلا للشيء الهام، ويذهب على مواعيد العيادات والمحاضرات الهامة مباشرة، يُقلل من فرص رؤيتها كثيرًا، ولكن هيهات، تتلاقى أعينهما فتختل نبضاته.

«لسه رؤيتها بتلخبط كيانه

ويقضي يومه بعقل تاني

لسه الذكرى لما بتنوح

بيحن القلب ويبوح

ولما يقوله: انسَ العمر بيروح

يرد: يا هي دي يا هتعيش وحداني»

أُغلق باب المصعد فاختفت عن نظره ولكن صورتها مازالت مُعلقة برأسه، فأكثر ما يخيفه حقًّا هي اللحظات التي يشعر فيها أنه ضعيف جدًّا أمامها، فهو يكره شعور الضعف جدًّا، فشعور الاستقلالية والقوة وعدم الارتباط نفسيًّا وعقليًّا بشخص آخر، هو شعور مريح ولكنه له أضراره على المدى البعيد، فعندما تتهدم حواجز القوة دائمًا ما يُسارع لإعادة بنائها مرة أخرى حتى وإن كانت تُخفي خلفها الكثير والكثير؛ فالاستقلالية أضحت صفة ملازمة والتخلي عنها وعن القوة يتطلب الكثير حتى يتهيأ لمرحلة

قادمة مختلفة عن ما سبق، فبقدر ما يريد القرب، بقدر ما يبتعد، تصارع بين حالة الارتباط التي تفرض نفسها وبين الرغبة في الانفراد بالفكر والعقل دون أية مؤثرات أو اهتمامات.

لكم يتمنَّى أن تعود العيون كالسابق ولا تتشابك وتحكي، كم يَوَدُّ أن يعود لمرحلة ما قبلها أو يعبرها لمرحلة ما بعدها، لكن مع أول إشارة ينسى كل هذا ويَظهر منه كل ما يُؤيد القرب ويدعم قرار الاستمرار.

بعد عدة قراءات فهم كثيرًا عن علاقة الحب، فهم أنه بعد نهاية لحظات الحب الأولى التي يُجن فيها أحدهما بالآخر، يجب أن يكون عرف أن لكلٍّ منهما لغة الحب الخاصة بالآخر حتى يظلا يعزفان على ذلك الوتر، فيظل الطرف الآخر رائعًا كأول يوم.

ينبغي ألا يأخذ التجاهل، الكبر، الغرور محلهما ولو بدون قصد، ولا يسعى أي طرف للتأكد من مقدار محبته لدى الطرف الآخر، فقط يسيران على طبيعتهما كأنما يريد أحدهما الإيقاع بالآخر مُجَدَّدًا،

فعلاقتنا أغلى ما نملك، يجب أن نغوص في بحرها دون أسئلة واستفهامات، نتغاضى عن كل لحظة تشكك ونعيش فقط

كل لحظات الفرح نشرح إذا اختلفنا ولا نتخلَّى أبدًا، فخطأ التخلِّي لا يُغتفر.

فياليته قرأ ذلك مبكرًا، وعرف ذلك منذ زمن، كان سيُطبقه بالتأكيد، كان سيُعبر لها عن مشاعره دائمًا، لم يكن ليُظهر إلا الحب والابتسامة، كان سيُخبرها ما يريده منها وما لا يريده ولا يصمت أبدًا

كان سيُبلغها بطموحه وأهدافه

كان وكان وكان

لم يكن ليعاندها بالتأكيد.

●●●

ذهب مع أصدقائه للشواء ليلاً على شاطئ الإسماعيلية وسط الامتحانات عندما أُتيحت لهما عدة أيام أجازة بين امتحانين، ولا يخلو دخولها من تذكرها، وأثناء جلوسه أمام الفحم وصديق رحلته أمامه منهك في ترتيب الفحم وتجهيز الفحمة الأم، ينتظران صديقيهما الآخرين ليأتيا بشيء يستطيعان الشواء عليه من الشقة، ليباغته هارون بسؤاله متى تفتح الباب مُجَدَّدًا؟ ليخبره أُعجَبُ كل ثلاث سنين ونصف عندما يكون القمر على شكل قلب مُعلق في السماء، ولكن هذه المرة أطال القمر المدة ولم أبت أنا في أمري بعد.

والحقيقة أنه كلما فتح الباب لفكره وعقله، يهربان لذات العينين، لم يعد فكره يقبل إلا تذكرها إذا سمح له بالفكر، ولم يعد قلبه يَقبل الشوق إلا لها إذا سمح له بالشوق، فهو الذي يسجن فكره وقلبه علَّهما يعودان لطاعته، لكنه عندما يغفل عن باب سجنهما، لا يجدهما إلا عندها،،،،

« والقلب معكم وإن لم تركم مقلتاي

والعقل يذكركم وإن لم تخطو خلفكم عيناي

يا رواية أكتبها بصمتي

وذكرى تبتسم لها شفتاي «

●●●

ويقارب يوميًّا من فكرة الحديث إليها والإفضاء بكل ما يدور في خُلده، علَّها تفهم ما حدث،لكنه يعود ليُذكر نفسه بقراراته التي اتخذها ولابد من تنفيذها، فقد قرر الصمت، قرر وضع الأمر برمته في يد الأيام، يخشى أن تذهب به الأيام إلى وجهته ولكن مع الشخص الذي لا يريد، يستحلف الأيام أن تكون هي النهاية والبداية، أن تكون هي الوجهة وبداية الرحلة، أن تُهديه فرصة الوصول إليها.

مع أحاديثهما البسيطة والنقاشات الخاطفة، يري أنها الذكاء وهو الخبرة

هي الذاكرة وهو القرار

هي الرسم وهو الكتابة

هي الطيبة والحنان وهو الحب

كيف لهذا الخليط ألا يمتزج.

اكتشف سر تجنبه النظر إلى الجميع، فهو إذا رأى اهتم، وقد يأخذ أغرب الغرباء من حيز تفكيره قبل أقرب الأقربين، بدءًا من كلب الشارع الضال الذي يتحرك بألم لإصابة بأحد أقدامه، مرورًا بالسائلة السورية التي أشقتها الحرب وزجت بجمالها لبيع الفُتات من أجل القليل ، وأمامها أطفالها الصغار الذين تُقتل طفولتهم كل يوم وصولاً إلى أصدقائه الذين يصل لمسامعه شكواهم فيود لو بيده الكثير ليفعله. يود أن يكف تلك السائلة، يتمنى لو بيده معالجة ذلك الكلب، وعندما تضيق عليه تلك الدائرة يخرج منها سريعًا، يذهب بعيدًا عن العالم الواقعي لعالم موازي لا يرى فيه إلا نفسه ومتطلباتها، لا يري فيه إلا بضعة مواعيد يؤديها حتى نهاية اليوم، يمقت النوم عندما يأتيه بتثاؤبه وهذيانه، يمقت إدمانه تناول المشروبات بأنواعها طوال قراءته

وتعلمه، يحاول تغيير ذلك كله، يعيش في تلك الدائرة هانئًا حتى يدفعه أحدهم للخروج منها بمكالمة، بطلب، بسفر مفاجئ، ولكن ما يلبث أن يشعر بالحنين للرجوع إليها، فلن يستطيع الخروج منها بشكل دائم، إلا عندما يكون بجانبه من ينقل معه الخطوة ولا يفوته سنده، فمثله من اعتاد القوة، لا يستند إلا إلى الثقة، فلا سبيل للمهاترات والمغامرات اللامحسوبة

لا سبيل للعيش بشخصيتين.

لم يجد مفرًّا منها إلا إليها، كتب لها أنه عاد من سفره أكثر هدوءًا واستماعًا، أنه يعكف على الصلاة والقرآن وكل ما تطوله يده من الكتب فهم مثلث النجاة في دنيتنا، كتب لها يخبرها أنه اختلف كثيرًا عن زي قبل، وبمضي الأيام تأكد له أنها الأفضل.

أوضح لها أن لديه الكثير من المتغيرات التي يعكف على تثبيتها حتى يتسنى له الانطلاق من قاعدة صلبة، لديه هي التي تجنب رؤيتها كثيرًا فرآها في أحلامه، هي التي كف عن متابعتها منذ زمن فتردد صدى ذكرها في كل موقف يواجهه، عبثًا حاول نسيانها.

« لنا عودة، سأفاجئك بها » ختم كلامه

ضغط مشاركة، وانتظر الرد...

●●●

الفصل الخامس عشر

كان العام الأخير يقترب من نهايته، وكانت الدفعة تُجهز للاحتفال بذلك، الفان داي تلك البدعة التي انتشرت كالنار في الهشيم بين دفعات الجامعات، التي حان موعد تخرجها، ولكنها تُضفي جوًّا جميلاً وتكسر حواجز ظلت لأعوام، وما لبث أن وجد نفسه في موقع المسئولية، فعندما ينظر لمعظم التحركات الهامة في حياته يجد أن هناك شخص أو مجموعة من الأشخاص هم من يدفعونه لذلك، فمع قُدرته على إدارة الأمور إلا أنه ينتظر من يأخذ بيده لأول عتبة على السلم، فدائمًا ما يظهر هذا البطل المجهول في الوقت المناسب، يدفعه لتجربة الأمر ويتزامن مع ذلك أقصى استفادة تبعًا لقانون حظ المبتدئين، ثم ينطلق بعدها ويتولى الزمام.

تولى الأمر وسط الكثير من النقد والاعتراض من أشخاص لا يُقَدِّرون النقاش ولا يُقَدِّمون الحلول، فهناك فارق بين من يعترض لمجرد الاعتراض وبين من يندمج مع العالم، يُعطي ويأخذ، يُعَلِّم ويَتَعَلَّم، يُناقش ويعترض ويقبل الاعتراض، فنحن مهما كان قَدْر معرفتنا، مازال هناك معلومة بحوزة الطرف الآخر نجهلها أو نسيناها، ومهما بلغنا من الذكاء هنالك فكرة سهلة لمشكلة نواجهها

لم تخطر ببالنا وتجدها أول ما ينطق بها الشخص الذي أمامك، فهذا الاندماج يسمح بالخروج بصورة مستقرة للشخصية، تفرح بتعقل وتحزن بتعقل، تشارك في المزاح بتعقل وتواسي الآخرين بتعقل، تحب بتعقل ولا تكره أبدًا.

كانت الاستعدادات تتم على قدم وساق، فخارج عباءة الطب يمكننا أن نُظهر الكثير من الإبداع والمهارة ونتذكر هواياتنا التي لو كُنا تَبِعناها من البداية لأوصلتنا إلى المناطق الأكثر استقرارًا، فظهر منهم المؤلف والمُغَنِّي والرسام، ظهر المصمم واسع الخيال، ظهر القائد والمنظم والمدير البارع، ظهر المفكر والقارئ الذي يُبدع بأفكاره من حوله، وظهر أيضًا المستمع المنصت الذي يُنفذ بإتقان والممثل الذي لم يجد فرصته بعد والطاهي البارع، وأخيرًا صاحب الكلمة المشجعة والاعتراض البناء واللمسة الجمالية.

كان يعيش معهم وعندما يعود للانفراد يعيش معها،

ففي خضم ذلك، استيقظ ذات صباح، ولا يتذكر من حلمه إلا أنه رآها وتكلما،ذهب للجامعة وكله قناعة أنهما سيتحدثان، فلم يتعود من أحلامه أن تخونه، بدأت العيادة كعادتها، كلٌّ ينتظر مريضه، يُجهز أدواته، ومنهم من يسارع الزمن حتى يُنجز أكبر قدر من الشغل، أتت هي متأخرة كعادتها، لتهب عاصفة على قلبه مع دخولها، فوجودها في محيطه يغير الفصول التي تدور حوله في

نفس الزمن. تابع عمله متجاهلاً كل ذلك تمامًا، ولكثرة ما أتعبه هذا التجاهل ولكن طبيعته تغلبه، وفي نهاية العيادة ومع تجمهر الطلبة في غرفة الأشعة، كلٌّ يدعو الله أن تخرج الأشعة سليمة وألا يحتاج لإعادتها لكي لا يضطر للوقوف في الطابور مرة أخرى، ترك مريضته لتحجز مكانها في الطابور وذهب لإحضار الفيلم اللازم لعملية التصوير، ولما عاد وجدها هي من تستخدم الجهاز في الدور قبله ووجد ربكة تلازمها وهي تحاول إصلاح الجهاز الذي توقف عن العمل فجأة، فيبدو أن الفصول تهتز له أيضًا، وعندما فرغت من العملية، وأثناء تحركها للذهاب لتحميض الفيلم، أخبرها بجملة عارضة: « الفيلم لم يتم تصويره » والتفتت نحو الجهاز لتعود في محاولة منها لتفادي الوقوف في الصف مرة أخرى، فيدعها ويُخبرها أن تأخذ الفيلم الذي بين يديه، يفتح يده لها كأنما يفتح قلبه، تمتد أصابعها لتأخذه كأنما تعبث بأناملها في شرايين قلبه وليس راحة يده، وبعد أن انتهت من إعادة التصوير ذهبت وذهب هو إثرها ليقوم هو أيضًا بالتحميض، ليقفا مرة أخرى في طابور التحميض، فنحن نقف في طوابير على أشياء كثيرة، يضيع من عمرنا عمرٌ في الوقوف منتظرين. .

قامت بإنهاء تحميض أول فيلم وكان بحوزتها آخر، فالتفتت لتخبره أن يتقدم هو ثم تُعاود هي حتى لا يتعطل ومن ورائهما، أنهى عمله وذهب مَرْضِيًّا بما حدث اليوم، يأمل أن تكون فهمت

أنه لا يُضمر لها أي شعور سيئ، وأنه لا يذكر لها أي خطأً ويحاول أن يُنسيها أخطاءه علَّها تنسى وتغفر، ويكفيه ذلك أيضًا.

خرج يومها من الجامعة، أدار محرك سيارته، يلف بها ليغير مساره فيقطع الطريق، ليتفاجأ بها أمامه تريد المرور وتقف على عتبة سيارته بانتظاره ليوسع لها، التفت ناحيتها لتبادله النظرات هي ومن في سيارتها، تمر كتيار كهربائي خفيف صعقه لا يميت ولكنه يحي.

●●●

كان يكتب لها، يرسل لها، يحاورها، وينفذ رغباتها حتى ولو لم تطلب، ومع كل هذا كان يقابلها بنفس الوجه من أول يوم عرفها فيه، ربما عباءتها وغطاء وجهها هما من يفرضان ذلك، لا ينسى عندما كان مستندًا إلى زجاج المصعد مرة، تلتف إحدى قدميه على الأخرى، يحادث زميلة له، وإذ يتوقف المصعد لتدخل من تُشبهها، فيجد نفسه لا إراديًا يقف منتصبًا، كأنما يفرض ذلك الملبس الاحترام في محيطه، يعطي صاحبته هيبة، لا تكسرها إلا عينان جميلتان.

جاء اليوم الموعود، يوم لا يُنسى في تاريخ دفعته، يوم جعلوه حفل تخرجهم قبل أن يتخرجوا رسميًا بعد، يوم حفر فيه تاريخ الدفعة وتاريخها في ذاكرته للأبد.

سبق هذا اليوم خلافات كثيرة، ومواقف عصيبة، فقد هدوءه لأسابيع، ينام ويستيقظ مفكرًا في موعد تسليم التصميم، موعد استلام التيشيرتات، موافقات الجامعة، والأهم، الأموال التي مازات لا تكفي لإعطاء الأوردرات، يفكر في تقبل المخاطرة بإعطاء الأمر بأوردات بعينها حتى قبل اكتمال الفلوس على مسئوليته الشخصية، بدأ اليوم هادئًا، تسلم المنظمون شاراتهم وخرجوا للاحتفال، ونسوا التنظيم ولم يظهروا إلا عند توزيع الأكل والحمد لله أنهم ظهروا، باغته أصدقاؤه بالتصوير، وباغته خاطر بجملة تحكمت فيه طوال اليوم.

«سيبك من التنظيم وخليك معانا» سمعها وترك الأمور تسير كما هو مُخَطِّطًا لها، لا يغادر الاحتفال مع أصدقائه إلا قليلاً، فعندما تنحى عن التحكم في المسار قليلاً ظهر من يساعد ويتولَّى بعض الشئون وهذا أجمل ما في الأمر تُتابع مايا المسار، ويُتابعها هو من بعيد، يرى سعادتها وهي تحمل الأعلام التي طبعها خصيصًا لأنها اختارتها، فيسعد لذلك، شاهد الجميع المسرحية التي كتبها هو وعُدي وأطلقوا عليها اسم (خمسة من عمري) والتي تدور في فلك ما مروا به خلال دراستهم، المواد الكثيرة ومتطلباتها، الامتحانات والأبحاث والسهر، التعبيرات التي تتكرر كثيرًا لبعض الدكاترة.

فقدان الحياة الشخصية لفترة في مقابل حياة طبية تدور في فلك المرضى ومشاكلهم، انتهاءً بخروجهم منتصرين بعد كل هذا مُمثلاً ذلك الانتصار بذلك اليوم، فقد غدو أكثر تصالحًا مع بعضهم ومع الحياة.

●●●

لطالما كان يمقت الخواتيم التي بلا نهايات في بعض الروايات التي قرأها، كان يُحدث نفسه « هل بعد كل هذا الحب، لا يعرف الطرفان ماذا يريدان من بعضهما، هل أحد الطرفين متشكك كثيرًا هكذا، هل لا يستطيع أحدهما غفران آخر خطأ الذي دائمًا ما يحدث قبل الفرحة الكبرى، أم هو الكبر والعناد مع الذات لخضوعها لنفس أخرى غير صاحبها، هل يرتبط التردد والخوف بالحب لتلك الدرجة ليجعلا مُحَبَين يتوقفان فجأة قبل نهاية الطريق ليصبحا غريبين بين عشية وضحاها، وتتحول رسائل الأمس بمرحها وعبثها لنظرات عتاب بين أعين تتهرب من بعضها اليوم أو ابتسامات مجاملة لا تروي وكلمات عابرة لا تكفي، فلكم هي صعبة تلك الحالة، لا إتمام للطريق، وبداية للخطوة التالية ولا نهاية، فقط غصة في النفس.

لم يُرد إلا أن تمر الأيام الباقية من ذلك العام بخير، يشعر أنه أدَّى ما عليه تجاه الجميع، ويستحق الراحة، ليرده من ذلك،

إشارة من محادثة من زميلاتها في وجودها، يطلبن الترتيب لإفطار للدفعة في نهاية آخر يوم جامعي لهم، وافق بعد أن تعهدوا بقيامهم بكل ما يتطلبه ذلك، فقط عليه أن يحضر ويدعم الدعوة، ولم يكن ليقف أمام رغبة لها في يده تحقيقها، ساهم في جمع الأموال معهم، وكان يراوده عدم الذهاب رُغم ذلك، لمعرفته بما سيجره عليه لقاء آخر من ويلات.

حتى جاء اليوم وتحركوا صوب النيل بعد أن اختاروه ليجري بهم بين ضفتيه، صعدوا المركب، وبدأت في التحرك، كان الجميع يتسامرون ابتهاجًا بنهاية سنواتهم الجامعية، وكان هو يتحرك جيئةً وذهابًا حتى تقابل مع والدها وجهًا لوجه فسلم عليه، والذي فاجأه حضوره ووالدتها.

شرع المُطرب في الغناء وأضفى العود الذي بين يديه جوًّا ساحرياً، يبدو أن حلم ألمانيا يتحقق ولكن بشكل مختلف، شرع أصدقاؤه في الرقص وجذبه أحدهم من قميصه ليكون في وسطهم، تتحرك يده بعصاة السيلفي الطويلة ليس للتصوير ولكن كَحَطَّاب في فرح شعبي، وبعدها غنوا أغنيتهم المفضلة التي أَلَّفها «عُدَيّ» لتُعَبِّر عن السنين التي قضوها:

«خمس سنين وفاتوا كنا فيهم مبسوطين

عدو علينا بسرعة وأدينا أهو متخرجين

قولناها للدكاترة، قولناها للمعيدين

هتفضل ذكرى حلوة تفتكروها بالسنين

ذاكرنا كتير وتعبنا علشان الميدتيرمات

الترم كان تقيل وأخدنا عشر مواد

إندو وبيدو وميدسين وجراحة وتركيبات

أندركت وإنفكشن بيتقالوا في كل الحالات

●●●

وبغنيلك يا صاحبي، هفضل فاكرك مش ناسيك

فاكر ضحكك معايا، وصُوَرْنا شاهدة عليك

مهما الأيام تعدي، هفضل برده مستنيك

واوعى تنسى العهود

مع بعضنا يحلى الوجود

وبقولها وبأعلى صوت

أحرار على طول ومفيش قيود»

●●●

obeikan.com

انتهوا وجلس ليُكمل الليلة بالمشاهدة باستمتاع للفرحة المنتشرة في الأرجاء، حتى سمع اسمه يتردد، وكانت أُم إحدى زميلاته تبحث عنه بلقبه الذي اشتهر به، فلم تكن وحدها من حضرت بصُحبة والديها، تدعوه ليُلقي كلمة أخيرة بمناسبة هذا الاحتفال، أمسك المايك، وارتجل بعد الكلمات التي يدعوهم بها ليكونوا هم الواقع الجديد للطب، وأن يَتَبَوَّءُوا المواقع التي تؤهلهم لذلك الدور، ثم تحول لتحية بعض الأسماء ويتردد في رأسه صدى اسمها،

هل ينطقه هكذا أمام الجمع أم يحتفظ به لنفسه كما يود الاحتفاظ بها بعيدًا عن الجميع، هل يحييها معهم أم يحتفظ بقيمتها لنفسه.

ثم سكت حينًا والأعين تتعلق به، ليستكمل قائلاً:

«عارفين موسى اللي دايمًا عامل قلق في الجامعة، اللي شايل الدفعة جوا وبرا، في شخص تاني يوازيه في المسئولية عن كل صغيرة وكبيرة، جندي مجهول هو سبب حاجات كتير حلوة حصلت والمحرك ليا في كتير من تحركاتي، وهو السبب في تجمعنا النهاردة، الشخص ده وسطينا

(وفجأة تجد نفسها في منتصف الحضور)

ليتابع قائلاً: «تحية لزينة»

وفي أثناء خروجهما بعد انتهاء الحفل الصاخب ذاك، وأثناء مصافحة والدها له بحرارة وكلمات والدتها الطيبة، تذكر عندما أرسل لها صورة فيها الدبلة أو المسدس بجانبها، والتي بعدها كان يأخذ رقم والدها، وسألها مازحًا حينها: إيه بقى؟ والدك أخباره إيه؟ هيسمعني كده ولا هنختلف؟

ردت عليه: « لا لا ، متخافش، بابا وماما طيبين جدًّا، طيبين عني بكتير»

تذكر ذلك؛ ليردد في عقله « طيبين فعلاً ولهما كل تقديري «

●●●

خرجوا من المركب بصعوبة، ومكثوا لفترة بعدها وقوفًا في المرسى لا يريدون مغادرة المكان من فيض السعادة المنتشرة فيه، تمر به إحدى زميلاته وهو مازال واقفًا، تُخبره بأنه حَيَّى الجميع ولم يُحَيِّ نفسه وهو أول من يستحق تلك التحية على حد تعبيرها؛ ليبتسم لها شاكرًا لهذا الإطراء، ويردد في نفسه، بل هم أيضًا يستحقون، فقد تغيَّر ذلك الفتى الذي كان لا يستطيع الوقوف أمام جمع من الناس، كان لا يرى شيئًا بعينيه كأن هناك حاجز أمامه، ولا يسمع بأذنيه تعليقاتهم، ويلتجم لسانه، تعرَّف

ذلك الفتى إلى القائد الذي بداخله، كما أطلقوا هم عليه، ومازال يأمل من نفسه المزيد، فشكرًا لهم.

●●●

هكذا انتهى كل شيء ببساطة، ذهب بعيدًا حتى شاطئ العريش حيث الصفاء والمياه الدافئة، وبالرغم من التحذير مما يحدث هناك ذهب، شَعَرَ أن العساكر هنالك طيبين لدرجة لا تليق بالإرهابيين والتفتيش في الكمائن بطول الطريق يتم ببدائية، فمازالت مصر لا تعرف معنى كلمة إدارة، وتُحل كل المشاكل بالمسكنات، تنغلق المدينة على أهلها القليلين، الذين يجلسون على الشاطئ في هدوء، ينظرون للأمواج التي تضربه في صمت، فلا توجد هنالك طائفة العشوائيين التي تلوث المكان الذي تتواجد به.

استحثه صوت ضربات الأمواج فأنشد يقول:

« أرى في البحر صباحًا صفاء عينيك

تضرب أمواجه الشاطئ لتذكرني بعنفوان حيويتك

وأرى في منتصف أخدانه غموض روحك

فيا بحر انقل لها شكوتي

فأنت أعلم بحقيقة جفوتي

أنـا الـذي يتحاشـى النظـر في عينيـه لأنـه أعلـم بمـدى ضعـف قلبـه أمـام سـهم نظرتـه،

أنـا الـذي أُصيـب قلبـه مـرة بـه، ويخشـى لـو أُصيـب ثانيـةً لا يسـتفيق «

●●●

obeikan.com

الفصل السادس عشر

مـرَّ شـهران، يُرتـب أوضاعـه مـع الحيـاة مـن جديـد، ومازالـت أحلامـه تُخطـره بقُربهـا قبـل أن تتقاطـع طرقهمـا، ومـازال حضورهـا بمحيطـه يَخِـلُّ ببوصلتـه تلـك التـي يُضنيـه الجهـد ليثبتهـا عكـس اتجاههـا، تتقاطـع مسـاراتهما فجـأة فيختـلُّ كل شـيء،

يرسـم لـه القـدر مسـارًا يتبـع فيـه خطاهـا، يذهـب إثرهـا حيـث تذهـب، بـل أبعـد مـن ذلـك إلـى حيـث تتمنـى أن تذهـب، يقـرأ مـا تقـرأ، ويتوقـع كثيـرًا مـا تُفكـر فيـه.

ذهـب هـو وهـارون إلـى مـكان يؤهلهـم لوضـع أقدامهـم علـى خارطـة الطـب في مصـر، جلسـا، وانشـغل بكتابـة شـيء مـا، ليجـد نغـزة مـن صديقـه ويشـير إليـه بالنظـر ناحيـة البـاب، ليجدهـا هي،لم يتفاجـأ كثيـرًا فقـد أُخطـر بذلـك، لاحـظ التوتـر والتخبـط البـادي علـى هـارون، يشـعر بارتبـاط مـا بـين مشـاعرهما فمـا لا يبـدو عليـه، يظهـر جليًّـا علـى صديقـه، فمـن سـاعة أن جمعهمـا القـدر وجعلهمـا أصدقـاء، وهـو يسـعى كذلـك لتثبيـت أواصـر تلـك العلاقـة بينهمـا، مـع كل خروجـة، تتـردد الكلمـة في رأسـيهما في نفـس الحـين، وينطقـان بهـا في نفـس اللحظـة، وقـد يسـبق أحدهمـا الآخـر بالنطـق فتظهـر الابتسـامة وتعلـو الضحـكات ويسـمع صداهـا الجميـع.

قد تكون أحداث الاجتماع عادت كلها في ذاكرته لوهلة فقد فيها اتزانه لنهاية اليوم، أما موسى اعتبرها هدية من القدر، قد تكون بابًا لِلُّقَى مستقبلاً مرة أخرى وأخيرة للأبد.

ظل طوال المحاضرة يُحاول التركيز بعيدًا عن الأفكار التي تُباغته متسائلة: « هل لو مرت أمامه أو مر أمامها سيُلقي التحية؟ كثيرًا ما يتجاهل إلقاء التحية على الكثيرين ممن يمرون به وبجانبه، لكن هي، وهذه المرة بالذات، لا يسعه التجاهل.

وعند خروجهم، كانت هي ورانسي على يمينه وبقية من يعرفهم من البنات أمامه، فألقى تحية عابرة على الجميع ومر بسلام، وحينما مر بجانبهما، سمع نداء صديقتها عليه بلقبه، التفت وتوقف الزمن للحظات ينظر لعينيها، فالحب كالبركان في الوقت الذي تظن فيه أنه قد خمد ثار فجأة، تعطيه ابتسامة كان قد اشتاق لها وتحمد الله على سلامته من العملية التي أجراها، ليرد عليها بتمني السلامة، ويرتجل مازحًا: « لسه رانسي هي اللي بتجيبك زي زمان، بس أنا للأسف مش لاقي حد يجبني، بس بدور» تبادلوا الضحكات وعادة هي لبقية البنات، ليعود الزمن لحركته مرة أخرى ويُكمل حديثه مع من حوله ممسكًا بقلبه عن التعلق بعينيها مُجَدَّدًا...

«ويُنشد اللسان من بحر عينيك

نظرة ابتسم لها ثغري

ومضة سعادة استفاقت لها روحي

تروحي وتغدي كالنسمة

تُرطب القلب ولا تدم

أنا الذي أمام الجميع كالسد، أمامك أنتِ كالوادي

فسيري فيه يا نهري»

قضى اليوم مع هارون، وعند مغادرته وكان الندى قد غطى سيارته، قام صديقه بكتابة شيء على سقف السيارة،نظر، فوجده قد كتب اسمها وبأسفله قلبان، نظر للكتابة بفرح، تمنَّى لو أنها لا تزول، ضحكا كثيرًا، وغادر حاملاً إياها في قلبه وعلى سقف سيارته.

●●●

رأوا مس من سعادة فتساءلوا!

هل من حبٍ جديد؟

بسطاء لا يعرفون.

أنتِ التي أُحبها كل يوم بجنون.

أنتِ حبي الذي يتجدد صباح مساء.

أنتِ التي أضحك لها وأهمس وأحكي.

أنتِ التي أغيب عنها وأغيب.

وأعود بنفس الشوق والحنين وبريق العينين.

أنتِ التي دعوت ربي أن تكوني لي

فهو الأقدر على جمع القلوب التي فَرَّقتها الحياة.

●●●

استيقظ قبل الفجر ليجد رسالة منها، ذات الوقت الذي كانت ذروة أحاديثهما فيه:-

زينة: جاتلي الشجاعة إني أقولك، إنه بغض النظر إنه للأسف محصلش نصيب، فأنتِ من أفضل الناس اللي قابلتها وأتمنَّى نفضل زملاء كعادتك.

موسى: بشوف ملامحك في كل مكان ارتبط بكِ.

زينة: وماذا تفعل عندما تتلاقى أعيننا؟

موسى: أهرب من عينيكِ، حتى لا يظهر ضعفي أمامهما، وأصمت فالصمت في حرمكِ جمال.

زينة: سئمتُ من هروبك، كما سئمتَ أنتَ من غموضي.

موسى: لنرجع كما كنا، نرجع لبدايات حبنا،

لأكف عن هروبي، وتكشفي لي حجاب

غموضك.

زينة: هل تظن أنه ممكن؟

موسى: ليه لأ؟

زينة: تخليتَ.

موسى: مرة ولن تتكرر.

زينة: تألمتُ.

موسى: وأنا،

لنضع حدًّا لهذا الصمت المقيت،

لنندمج ونحيا الحياة التي تمنيناها.

obeikan.com

زينة: هل تعدني.

موسى: أعدكِ.

●●●

اختلفا وتَمَسَّكَ كل منهما بطريقه وافترقا طويلاً ولكنهما تلاقيا في النهاية.

‘‘‘‘

تعاملَ كَمَلِكٍ حتى وجد مَلِكَتَه ولم يرضَ بأقل من ذلك.

obeikan.com

شكر وتقدير لِوَالِدَايَّ.

اللذان يدعماني دائمًا مهما ظهر مني.

كل الحب لأخي الذي دائمًا بجانبي.

كل التقدير للأصدقاء والزملاء الذين يُفاجئونني بكلمات مُشَجِّعَة، وعبارات عابرة تحمل في طياتها الكثير، وقد لا يشعرون هم بمقدار إحسانهم هذا.

obeikan.com

للتواصل مع المؤلف

https://www.facebook.com/mohammed.w.ayad

E-mail: m_ayad25@yahoo.com

https://www.facebook.com/elrahebaWelaasy/

obeikan.com

الفهرس	الصفحة
إهداء:.....	٥
مقدمة :.....	٧
الفصل الأول:.....	٩
الفصل الثاني:.....	١٩
الفصل الثالث:.....	٢٧
الفصل الرابع:.....	٣٥
الفصل الخامس:.....	٤٥
الفصل السادس:.....	٦١
الفصل السابع:.....	٧٩
الفصل الثامن:.....	٨٧
الفصل التاسع:.....	١٠١
الفصل العاشر:.....	١٢١
الفصل الحادي عشر:.....	١٣٣
الفصل الثاني عشر:.....	١٥٩
الفصل الثالث عشر:.....	١٧١
الفصل الرابع عشر:.....	١٨٥
الفصل الخامس عشر:.....	١٩٥
الفصل السادس عشر:.....	٢٠٧

obeikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikan.com